المركز الوطني للوثائق والبحوث
National Center for Documentation & Research

وزارة شؤون الرئاسة
Ministry of Presidential Affairs

ليوا

مجلة علمية محكّمة يصدرها المركز الوطني للوثائق والبحوث

السنة الرابعة • العدد الثامن • ديسمبر ٢٠١٢

لِيوَا

مجلة علمية محكّمة يصدرها المركز الوطني للوثائق والبحوث

رئيس التحرير
د. عبد الله الريس
المدير العام للمركز الوطني للوثائق والبحوث

مديرة التحرير
د. عائشة بالخير

هيئة التحرير
د. يسرا صوفان
د. جوينتي مايترا
علي درويش عمران

سكرتيرة التحرير
شريفة الفهيم

التصميم والإخراج
محمد عادل

الهيئة الاستشارية
سعادة زكي أنور نسيبة
مستشار وزارة شؤون الرئاسة، ونائب رئيس هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، وعضو مجلس إدارة المركز الوطني للوثائق والبحوث

أ. د. مصطفى عقيل الخطيب
أستاذ التاريخ الحديث – جامعة قطر

د. جون بيترسون
مؤرخ ومحلل سياسي

د. محمد سعد المقدم
أستاذ التاريخ الحديث المساعد – جامعة السلطان قابوس

د. سعد عبدالله الكبيسي
أستاذ الأنثروبولوجيا المساعد – جامعة الإمارات العربية المتحدة

© المركز الوطني للوثائق والبحوث، ٢٠١١
أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة

ترحب هيئة تحرير مجلة ليوا بالبحوث العلمية الأصيلة غير المنشورة، باللغتين العربية والإنجليزية، في موضوعات تختص بالتاريخ والتراث والآثار للإمارات العربية المتحدة ومنطقة الخليج العربي.

ترسل البحوث وجميع المراسلات المتعلقة بمجلة ليوا إلى العنوان الإلكتروني liwa@ncdr.ae

الكتب التي تصل إلى المجلة لمراجعتها لا تُردّ إلى أصحابها.

لمزيد من المعلومات وللاشتراك في المجلة يرجى دخول موقع www.ncdr.ae

ما ورد في هذا العدد يعبر عن آراء الكُتّاب ولا يعكس بالضرورة آراء هيئة التحرير أو المركز الوطني للوثائق والبحوث.

طبعت في مطابع المركز الوطني للوثائق والبحوث

مجلة علمية محكّمة يصدرها المركز الوطني للوثائق والبحوث

السنة الرابعة • العدد الثامن • ديسمبر ٢٠١٢

المحتويات

التنافس البريطاني العثماني وأثره في الكيان القطري ٥
في فترة حكم الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني– (١٨٧٨ – ١٩١٣)
أشرف صالح محمد سيد
الجامعة الإسكندنافية – النرويج

«لم نكن ضعفاء البتة في الأيام الخالية١» ٢٣
النساء والغوص على اللؤلؤ في إمارات الخليج الجنوبية– ١٨٧٠/١٩٥٠
فكتوريا بنرير هاي تاور
جامعة شمال جورجيا – الولايات المتحدة الأمريكية

اكتشافي للخليج عام ١٩٦٤م ٣٦
ألن سانت هيلاري
مخرج ومصوّر

الضبط الاستنادي للأسماء الجغرافية في دولة الإمارات العربية المتحدة: ٥٣
تقييم الممارسات ورسم التوجهات نحو أفضل التطبيقات
رياض بن لعلام
المركز الوطني للوثائق والبحوث

عرض كتاب
كتاب إمارات الساحل المتصالح "دولة الإمارات العربية المتحدة" ٨١
تأليف: موزة عويص علي الدرعي
عرض: علي درويش عمران، المركز الوطني للوثائق والبحوث

التنافس البريطاني العثماني وأثره في الكيان القطري
في فترة حكم الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني– (١٨٧٨ – ١٩١٣)

أشرف صالح محمد سيد

ملخص البحث:

شهد منتصف القرن التاسع عشر بداية ظهور كيان سياسي جديد في شبه جزيرة قطر، واكتملت عملية الظهور في مطلع سبعينيات القرن نفسه باسم «مشيخة قطر»، التي أسهم في صياغاتها الأولية الشيخ جاسم ابن محمد بن ثاني إلى جانب أبيه إسهاماً فعالاً في فترة (١٨٥١ – ١٨٧١)، وعانى ما عاناه والده من الآثار السلبية للصراعات القبلية، والخلافات الإقليمية، والضغوط الدولية.

تتناول هذه الدراسة التنافس البريطاني العثماني للهيمنة على قطر وشيخها جاسم بن محمد بن ثاني في فترة (١٨٧٨ – ١٩١٣) التي شهدت تنافس الدولتين الكبيرتين للسيطرة على الخليج العربي وإماراته: بريطانيا بحكم مصالحها التجارية والاستعمارية واتفاقياتها المقيدة للمنطقة، والدولة العثمانية بحكم صلاتها التاريخية والدينية باعتبارها دولة الخلافة الإسلامية؛ وذلك لرصد حركة التنافس، ودراسة موقف الشيخ جاسم، وبداية تحديه للضغوط البريطانية بعد توقيع والده اتفاقية سنة ١٨٦٨ مع السلطات البريطانية في الخليج، ثم تفكير الدولة العثمانية في السيطرة على المنطقة منذ سنة ١٨٧١.

استطاع الشيخ جاسم أن يتفهم طبيعة الصراع الدولي في الخليج، فصدّ عن إمارته أخطاره، وتصدى له بالدبلوماسية والدهاء تارة، وبالقوة تارة أخرى، وبالحنكة والذكاء في كل الأحوال؛ فتمكن برؤيته الصائبة للأمور من المحافظة على الكيان السياسي القطري الذي بناه في تاريخ العرب الحديث.

أهمية البحث:

تُعَدّ فترة موضوع البحث الممتدة من سنة ١٨٧٨ – ١٩١٣ في قطر من أهم مراحل تاريخها؛ لأنها مرحلة تأسيس وحدة البلاد وسيادتها واستقلالها، ومرحلة تحويل قطر من مدن وموانئ للغواصين ومعابر للقبائل، إلى مشيخة كغيرها من مشيخات ساحل الخليج العربي، لها اعتبارها، ويحسب حسابها في منطقة من أكثر مناطق العالم تنازعاً في النفوذ والاستعمار. وموضوع هذا البحث من الموضوعات المعتبرة في تكوين العرب الحديث؛ لأنه يُعنى بواحد من أبرز الزعماء العرب في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني، الذي نجح في تحقيق طموحه، وتكوين كيان سياسي مستقل في قطر في هذه الفترة التي شهدت صراعًا دوليًا بين القوى المختلفة بغية تحقيق مآربها ومطامعها في منطقة الخليج.

مشكلة البحث:

مما يسترعي النظر طريقة تعامل إمارة قطر مع الدول المهيمنة من حيث المظهر السيادي الذي حرصت عليه، وأكدته الأحداث، ومن حيث كفاحها لجمع أطرافها والحفاظ على ثرواتها،رغم حداثة تاريخ الإمارة، كما

أنها تمتعت ببعض الخصوصية التي ميزتها، فقد كانت آخر ما فكّت ارتباطها بالدولة العثمانية سنة ١٩١٣، وآخر ما وقّعت على معاهدة الحماية مع بريطانيا سنة ١٩١٦؛ لذا كان البحث عن الأولويات التي شغلت حكام قطر من آل ثاني الذين اقترن بهم ظهور قطر كيانًا سياسيًا معترفاً به– أمراً مشوقاً، وإذا عددْنا الشيخ محمد آل ثاني مؤسس إمارة قطر عندما حصل على اعتراف بريطانيا بسيادته في قطر بمعاهدة ١٨٦٨ ، فإن المؤسس الحقيقي هو ابنه الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني الذي وصل الحكم سنة ١٨٧٨ وثبت أركان قطر، وحال دون فقدانها سيادتها، و خاض في كل القضايا السيادية، وتنوعت أساليبه في معالجتها.

هدف البحث:

يتناول البحث فترة من أهم الفترات في تاريخ قطر الحديث والمعاصر؛ إذ كانت قطر خاصة ومنطقة الخليج العربي عامة تحت تهديد الدولتين: البريطانية، والعثمانية، وكان كل منهما تحاول استخدام ما لديها من وسائل الترغيب والترهيب لفرض نفوذها وسيطرتها. وهذا البحث يستهدف رصد التطور التاريخي لظهور الشخصية السياسية لشبه جزيرة قطر بدراسة التنافس البريطاني العثماني للهيمنة على قطر، ودور شيخها جاسم بن محمد بن ثاني في فترة (١٨٧٨ – ١٩١٣).

منهجية البحث:

أُعدّ هذا البحث وفق المنهج العلمي التاريخي التحليلي الذي يقوم على أساس عرض الوقائع التاريخية، واستنباط الحقائق منها، وما يترتب عليها من استنتاجات بالشرح والتفسير.

محاور البحث:

- ظروف تولي الشيخ جاسم مقاليد الحكم.
- بداية العلاقات القطرية البريطانية (١٨٦٨).
- بداية العلاقات القطرية العثمانية (١٨٧١).
- التنافس البريطاني العثماني.
- التوتر في العلاقات القطرية العثمانية، والموقف البريطاني منه.

أهم المصادر:

تتبُّع المعلومات عن قطر في المصادر العربية أمرًا ليس سهلاً؛ فالمصادر والمراجع العربية العامة قلما تعرضت لذكرها ، وإذا جاء ذكرها كان هذا في إطار السياق العام للحديث عن دول الخليج، ماعدا بعض المراجع الحديثة مثل كتاب الدكتور عبد العزيز المنصور «التطور السياسي لقطر من ١٨٦٨– ١٩١٦»، الذي اعتمد فيه على نشر وثائق بريطانية في تاريخ قطر، بالإضافة إلى عدد خاص عن قطر من مجلة «**التاريخ العربي**»، ع٤٤ ربيع ٢٠٠٨، **وأبحاث الندوة التاريخية المصاحبة لاحتفالات اليوم الوطني لدولة قطر ١٦ – ١٧ ديسمبر ٢٠٠٨**، تحرير جمال محمود، أحمد زكريا الشلق، يوسف العبد الله، محمد همام فكري، (مركز قطر الفني، ٢٠٠٨)، التي خُصصت لتسليط الضوء على فترة حكم الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني.

الدراسات السابقة:

أهم الدراسات السابقة التي تناولت جزءاً من موضوع هذا البحث:

محمد، صالح خضر، «نشاط القناصل البريطانيين في قطر في عهد أسرة آل ثاني ١٨٦٨ – ١٩١٤» مجلة دراسات إقليمية (جامعة الموصل)، الإصدار ٢١، ٢٠١١؛ فقد تناولت هذه الدراسة التعريف بقطر وأهميتها، وأسرة آل ثاني ودورها في قطر، ومواقفها من الأسر الحاكمة الأخرى في المنطقة، وموقف الدولة العثمانية وسلطاتها في المنطقة، وأثر ذلك في قطر، ونشاط القناصل البريطانيين وأنشطتهم السياسية والاقتصادية، والاهتمام بالرعايا كمشكلة كانت تواجه قطر.

المتوقع من النتائج:

تعرّف سياسة الشيخ جاسم في مرحلة التأسيس، واستنتاجات ودروس في تاريخ قطر الحديث.

مقدمة:

قطر في منتصف السّاحل الغربي من الخليج العربيّ، شرق شبه الجزيرة العربية بين دائرتي عرض ٢٧ ٢٤° و٢٦ ١٠° شمالاً، وخطي طول ٤٥ ٥٠° و٥١ ٤٠° شرقًا. وهي شبه جزيرة تمتّد باتجاه الشّمال داخل الخليج العربيّ، ويتبعها عدد من الجزائر أشهرها: حالول، وشراعوه، والبشيرّية، وركن، والعالية، والسافليّة، والأسحاط. مساحتها ١١٤٧٣كم^2، ويحدُّها من ناحية الشّرق خليج سلوى، وتفتح سواحلها الشّمالية والغربيّة على الخليج العربيّ، أمّا من ناحية الجنوب فتتّصل بواسطة رقبة ضيّقة بشبه الجزيرة العربّية، حيث تحدُّها المملكة العربيّة السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة.[١]

ارتبط تاريخ قطر الحديث بنشأة أسرة آل ثاني وظهورها على المسرح القطري باعتبارها أسرة حاكمة اجتمعت لها الرياسة والإدارة، وتوليها زمام السلطة على نحو مشابه تمامًا لما كان عليه الوضع في سائر دول الخليج؛ إذ اقترن التاريخ السياسي فيها بظهور الأسر الحاكمة. إن مفهوم «الأسرة الحاكمة» يستمد مقوماته وأصوله من نظام «المشيخة» القائم على الأنساق القبلية التقليدية، الذي يشير إلى تولي أسرة ما الحكم بناءً على عدة اعتبارات ومعطيات من سماتها: التوافق بين القبائل والعشائر على قبولها واختيارها، ووجوب الولاء والطاعة لها، انطلاقًا من تعاليم الإسلام السامية التي تحث على السمع والطاعة لولاة الأمر ما لم يأمروا بمعصية.[٢]

يعود ظهور آل ثاني في قطر– كما تجمع المصادر والروايات– إلى أوائل القرن الثامن عشر للميلاد، وترجع في النسب إلى جدها الشيخ ثاني بن محمد بن ثامر بن علي، من بني تميم من أشهر قبائل مضر بن نزار الجد الأكبر لهذه القبيلة، وأصل موطنها في بلاد نجد من منطقة «الوشم» ومنها نزحوا هم وأبناء عمومتهم المعاضيد إلى واحة «جبرين» من أراضي السعودية، وتنقلوا في جنوب البلاد وشرقها حتى انتهى بهم الاستقرار في مدينة الزبارة[٣] حيث ولد «ثاني» جدّ العائلة، ثم انتقلت الأسرة إلى بلدة فويرط في شمال قطر قبل انتقالها إلى الدوحة حوالي سنة ١٨٤٧م.[٤]

كان نزول آل ثاني الدوحة في ظروف غاية في الشدة والاضطراب[٥] برزت فيها شخصية الشيخ محمد بن ثاني (١٨٥٠ – ١٨٧٨) الذي وجد في ابنه الشيخ جاسم بن محمد (١٨٧٨ – ١٩١٣) خير عون له؛ إذ يُعَدّ

المؤسس الفعلي لإمارة قطر، وأول من حمل لقب شيخها بدون منازع؛ فهو مؤسس بنائها، ومقيم أركانها، والذي قاد زمامها وسط أمواج متلاطمة حتى استخلص لها شخصيتها من براثن الاستعمار، وتصارع القوى الداخلية والخارجية وتناهبها، وما ركن يومًا إلى الدّعة؛ بل كان في جهاد مستمر؛ ما إن ينتهي من معركة حتى يدخل في غيرها، وما إن يفرغ من صراع حتى يشتبك في غيره في الداخل وفي الخارج، و حواليه من كل جانب. ذاق مرارة الهزيمة كما ذاق حلاوة النصر، وهو في الحالين المسلم العربي الملتزم بدينه، وسلوكه، وقيمه.[٦]

ظروف تولي الشيخ جاسم مقاليد الحكم:

تفيد المصادر التاريخية أن الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني من مواليد سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م في منطقة «فويرط» في الشمال الشرقي من شبه جزية قطر. تلقى تعليمه الديني والأدبي على يد بعض علماء المسلمين، فدرس القرآن الكريم وعلومه من تفسير وتجويد، وقرأ كتب التاريخ وغيرها من الكتب الثقافية. وكان محبًا للشعر حتى أصبح شاعراً، وله ديوان شعر. وكان خطيبًا بليغًا، وقاضيًا عادلاً يفصل في المنازعات بين رعيته بالعدل على ضوء الكتاب والسنة.[٧]

كان الشيخ جاسم من كبار التجار في شبه الجزيرة العربية والخليج؛ يملك ما يزيد على مئة سفينة تعمل في التجارة وفي الغوص بحثًا عن اللؤلؤ، وصيد السمك، ودرّت عليه التجارة أموالاً طائلة، فسخر جزءاً كبيراً من دخله لمساعدة الفقراء والمحتاجين من أهل بلده، وفي بناء الجوامع والمدارس، وفي الإنفاق على أئمة المساجد وطلاب العلم.[٨] وتولّى الكثير من القضايا السياسية والإدارية في الدولة بعد مبايعة أسرة ثاني والشعب القطري والده الشيخ محمد بن ثاني سنة ١٨٦٦م ،بل إن المصادر تجمع على أنه أصبح الحاكم الفعلي في البلاد منذ سنة ١٨٦٩م لكبر سن والده الذي ناهز الثمانين من العمر آنذاك.[٩] ولمّا توفي الشيخ محمد بن ثاني –رحمه الله– سنة ١٨٧٨ خلفه على حكم البلاد ابنه وولي عهده الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني رسمياً كما هو سائد في نظام الحكم الوراثي ومبايعة الأسرة الحاكمة وأعيان البلاد.[١٠]

بداية العلاقات القطرية البريطانية (١٨٦٨):

إن بريطانيا التي رمت بثقلها في المنطقة لم تكن لتسمح لأي قوة أخرى أن تنافسها في الخليج العربي؛ لذا تمكنت بسلسلة من الحملات العسكرية، والمعاهدات، والاتفاقيات غير المتكافئة، التي جاءت على شكل تعهدات بالالتزام بسياستها على وفق ما تمليه القوة وحدها–من أن تفرض هيمنتها على حكام منطقة الخليج العربي ومن ضمنهم حكام قطر.[١١]

وصل المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي[١٢] العقيد لويس بيلي إلى قطر في ١٨٦٨/٩/١٢ ، ووقّع مع الشيخ محمد، حاكم قطر، معاهدة السلم الدائم في الخليج التي وقعها بقية زعماء الخليج العربي منذ سنة ١٨٢٠ [١٣]، و تضمنت خمس مواد تنص على: الامتناع عن القرصنة البحرية، وتجارة العبيد، وتجارة السلاح، وعدم الاعتداء[١٤]، وبتحكيم بريطانيا في أي خلاف مع أي إمارة من إمارات الخليج العربي. واعترفت بريطانيا باستقلال قطر وبحكم آل ثاني.[١٥] ويختلف مفهوم الاستقلال الذي استخدمته السلطات البريطانية في هذا الصدد عن مفهومنا في الوقت الحاضر تماماً ؛ فهو يعني وجوداً سياسياً لمنطقة معينة بصرف النظر عن كونه خاضعًا لدولة أخرى، أو موضوعًا في حمايتها.[١٦]

عدّ بعض الدارسين هذه الاتفاقية مكسبًا لبريطانيا بضم قطر إلى بقية إمارات الخليج العربية، ولكنها تعدّ مكسبًا لقطر أيضاً ؛ لأن بريطانيا اعترفت باستقلال البلاد وبحكم آل ثاني؛[١٧] وبذلك أصبحت إمارات الساحل الغربي للخليج من مسقط جنوبًا إلى البحرين شمالاً ترتبط بمعاهدات مع الدولة البريطانية، و لم يبق إلا سواحل الأحساء وإمارة الكويت؛ إذ كانت هذه الأجزاء غير مرتبطة بالإنجليز.[١٨]

فشلت بريطانيا في فرض نفوذها على البلاد أسوة بالآخرين رغم نجاحها في ضم قطر إلى معاهدة الهدنة البحرية أو السلم الدائم في الخليج؛ لأن الشيخ جاسماً الذي أصبح الحاكم الفعلي للبلاد منذ سنة ١٨٦٩ فضل التحالف مع الدولة العثمانية، وسمح للحامية العثمانية بدخول البلاد في يوليو سنة١٨٧١ بعدما جاء الشيخ عبد الله الصباح حاكم الكويت على رأس قوة عثمانية وأقنعه بالسيادة العثمانية.[١٩]

بداية العلاقات القطرية العثمانية (١٨٧١):

كان تعيين مدحت باشا واليًا على بغداد (١٨٦٩ – ١٨٧٢) وهو الرجل الذي عُرف بمحاولاته المتكررة لإصلاح نظام الدولة ودستورها، وغيرته على تجديد نشاطها– حدثًا هاماً للعلاقات العثمانية البريطانية في الخليج؛ فقد أخذ على عاتقه مدّ سيطرة الدولة العثمانية على بلدان الخليج لتشمل الكويت، وقطر، والبحرين، ويحلّ النفوذ العثماني المباشر محل السعوديين في حكم الأحساء ونجد.[٢٠] وكانت استعدادات تجري بتكتم شديد وبسرعة فائقة على غير عادة الولاة العثمانيين؛ إذ حذر مدحت باشا أتباعه من وصول المعلومات إلى الإنجليز؛ فلم يعلم بها قنصل الإنجليز في بغداد، وعلمت السلطات البريطانية بها في أواخر ديسمبر سنة ١٨٧٠.[٢١]

أثار هذا الأمر بريطانيا التي ما كانت ترغب في الاصطدام مع العثمانيين؛ لأن ذلك يخرق السلم في البحار، وقد يؤدي إلى تدمير التجارة البريطانية، إضافة إلى المشكلات السياسية التي ستنجم عن هذه الحرب. وقد سلط لنا مايو – نائب الملك البريطاني في الهند– الضوء على خطر الحملة العثمانية قائلاً: «إن الحملة العثمانية ستضرّ بالمصالح التجارية البريطانية في المنطقة، وتؤثر في مصالحها في الهند، وأعتقد أن الباب العالي كسب الموقف من الناحيتين السياسية والتجارية، وسيشجعه ذلك النجاح على كسب المزيد في المستقبل» وطلب من الحكومة البريطانية الضغط على الباب العالي لإلغاء الحملة؛ لأنها تؤثر سلبًا في المصالح البريطانية في المنطقة.[٢٢]

حاولت السلطات البريطانية منع إرسال تلك الحملة؛ لأن توسع أعمال العثمانيين في مياه الخليج خطر يهدد مركزها ونفوذها، ولكنها لم تستطع؛ فالمعاهدات التي عقدتها مع شيوخ المنطقة كانت قائمة على أساس تنظيم العلاقة بينهم، ومنع أي تجاوز من أي منهم على الآخر، وليس تنظيم علاقتهم بالعثمانيين.

لقد كان هدف الحملة الأساسي إخضاع الأحساء، ولكن الأتراك بدؤوا يوسعون عملياتهم جنوباً وشرقاً حتى قطر في الوقت الذي كانت فيه قواتهم تتقدم نحو واحة الأحساء[٢٣] في يوليو سنة١٨٧١.ومن هنا ندرك أن الحملة كانت قد دُرست وخطط لها مسبقًا في القسطنطينية؛ لأن تقدم القوات العثمانية نحو قطر كان– ولا شك– سيخلق نوعًا من الصراع مع الدولة البريطانية.[٢٤]

وصلت الحملة العثمانية إلى قطر في شهر يوليو سنة١٨٧١، تنفيذًا لأهداف مدحت باشا والي بغداد في فرض سيادة الدولة العثمانية على الساحل الغربي للخليج العربي، ورفع الشيخ جاسم العلم العثماني على قصر

الحكم وعلى قصره الخاص في الدوحة.[٢٥] ورحب الوزير مدحت باشا بالشيخ جاسم بن محمد وعينه قائم مقاماً لقطر،[٢٦] وأنشأ في الدوحة محطة للفحم ومرسى للسفن، وأقام حامية عثمانية في البدع.[٢٧] وأصدرت الحكومة البريطانية – إثر ذلك– احتجاجات فورية، واتهامات للدولة العثمانية بأنها تخطط لاحتلال البحرين وساحل عمان المتصالح للقضاء على المصالح البريطانية في المنطقة. ومما لا شك فيه أن الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني كان يحاول المناورة على حساب العثمانيين الذين كانوا في تنافس مع البريطانيين للسيطرة على هذه المنطقة، ولكنه دخل في تحدّ للإنجليز بقبوله التحالف مع العثمانيين، والحماية منهم، واستمر ذلك التحدي منذ سنة ١٨٧١ حتى وفاته سنة ١٩١٣[٢٨].

لجأت بريطانيا إلى خلق الكثير من المشاكل للشيخ جاسم مع جيرانه، ومارست الكثير من الضغوط عليه؛ فتارة تتهمه بالقرصنة البحرية، وتارة أخرى تتهمه باضطهاد رعاياها من التجار، ولكن كل تلك الضغوط لم تثنه عن سياسته مع الدولة العثمانية، ورفضه الحماية البريطانية؛ إذ كان يَعُدّ بريطانيا منحازة إلى بعض خصومه في المنطقة.[٢٩]

في الواقع كان وصول العثمانيين إلى قطر سنة ١٨٧١ بدايةً حقيقية للمواجهة بين بريطانيا والدولة العثمانية في منطقة الخليج، وإن ظلت بريطانيا حريصة على عدم الدخول مع الدولة العثمانية في صراع سياسي أو عسكري مكشوف مادامت مصالحها لم تتعرض للخطر، واكتفت بخلق المشاكل لقطر مع المشيخات المجاورة.[٣٠] وقد بدأ ردّ الفعل البريطاني خافتًا حين وصل العثمانيون إلى الخليج العربي؛ وذلك لعدم تعارض المصالح أو تناقض الأهداف. كانت المصالح الحكومية العثمانية وأهدافها بريّة، وقد أظهر البريطانيون زهدًا في البر ومصالحه وأهدافه، وقصروا همهم على البحر والسواحل التي تشكّل سياج هذا البحر. وما كان لنا أن نتبيّن وجود رد فعل بريطاني لو لم يتّخذ العثمانيون طريقهم إلى الأحساء بحرًا. وخشي البريطانيون من اضطراب المناطق المتهادنة؛ فتابعوا مسير الحملة العثمانية بحرًا، وحين استقرّت تلك الحملة في البر ظهرت مشاكل أخرى تصاعد فيها وقع ردّ الفعل البريطاني.[٣١]

التنافس البريطاني العثماني:

كانت قوتان أساسيتان تتصارعان في الخليج في القرن التاسع عشر: القوة البريطانية الاستعمارية لكسب المغانم وتأمين المواصلات على حساب دول المنطقة وشعوبها، والقوة العثمانية التي اندفعت من موقعها الإستراتيجي في العراق نحو الخليج للرد على نفوذ البريطانيين، والحدّ من تعامل شيوخ المنطقة معهم، بالإضافة إلى إضعاف دور الدولة السعودية الثانية التي تعدها خصمًا لدودًا بسبب مواقفها العدائية المزمنة من العثمانيين منذ تأسيسها على يد آل سعود.[٣٢] ويعود التنافس بين الإنجليز والعثمانيين في قطر إلى خصوصيتها الجيوستراتيجية فهي في وسط الخليج العربي، وتُعَدّ حدًا بين الساحل الجنوبي للخليج الذي لا يسمح الإنجليز بوصول قوة خارجية إليه، والساحل الشمالي الذي اعتادوا حتى ذلك الوقت أن يتركوا أموره للسلطات المحلية.

الواقع أن معاهدة ١٨٦٨ أكدت استقلال قطر عن البحرين مع استمرار دفع شيوخ القبائل القطرية مبالغ سنوية (نصاب الزكاة) لشيوخ البحرين الذين يرسلونها إلى السعوديين مقابل حماية الأراضي القطرية من غارات البدو المجاورين كبني مرة والعجمان. وكانت وصول الحملة العثمانية فرصة للشيخ جاسم كي يتحرر من هذا الشرط؛ لذلك شجّع البريطانيون شيخ البحرين على الاحتجاج على تصرف الحكومة العثمانية

إزاء قطر، وأرسلوا مندوبًا إلى الدوحة لمطالبة شيخها بالمبالغ التي كان يدفعها لشيخ البحرين. وقد رفض الشيخ جاسم المطالب البريطانية، وأعلن أنه «رعية عثمانية».[٣٣]

وقد حاول لويس بيلي– بعد وصول الحملة العثمانية إلى قطر– أن يتحقق أَكانت الحكومة العثمانية هي التي أمرت الشيخ جاسماً باتخاذ الإجراءات تلك أم لا؟ فاتصل بالقنصل البريطاني العام في بغداد نيل هربرت فردّ عليه هذا نقلاً عن والي بغداد مدحت باشا «بأن تأكيد الدولة العثمانية بعدم التدخل في شؤون البحرين أمر لا يشمل قطر».[٣٤] ولمّا أرسل بيلي مساعده كرانت إلى قطر لمعرفة ما يجري فيها اهتمت الحكومة العثمانية، وعدّت ما فعلته بريطانيا عدوانًا على أراضيها؛ لذلك كان رأي بيلي أن يترك الموقف في قطر مائعاً على أراضيها في الظروف الحالية ما دامت السيادة العثمانية اقتصرت على الدوحة، لكن أي محاولة لتوسيع السيطرة العثمانية سوف تقاوم.[٣٥]

الجدير بالإشارة أن حكومة الهند لم ترض من بيلي اتصاله بهربرت مباشرة؛ فقد خالف ما اقتضته حكمة حكومة الهند من عدم التراسل بين المقيمين إلاّ بواسطتها؛ فهي لا تريد للقنوات أن تتعدّد، كما لم ترض من هربرت اتصاله بمدحت باشا دون تفويض منها؛ ولهذا أبرقت إلى رجليها في المنطقة تطلب من بيلي التزام عدم الاتصال بهربرت في المسائل السياسية والشؤون الدولية وكافة المسائل المتصلة بالارتباطات التعهدية أو الالتزامات البريطانية، وطلبت من هربرت ألاّ يقحم نفسه في الشؤون السياسية، وألاّ يناقش الباشا فيها إن لم يصله منها تفويض محدّد يخوّله ذلك. ولعلّ في هذا ما يفيد أن حكومة الهند كانت تدرك تمامًا أن التعامل مع هذه الأمور يتطلّب شيئًا أكبر من التعامل على المستوى المحلي.[٣٦]

أرسل نورث بروك نائب الملك في الهند في إبريل سنة ١٨٧٦ مذكرة إلى حكومته قال فيها: إن وجود العثمانيين في سواحل قطر سيقلل من الهيبة البريطانية، وأضاف: « لن يكون لنا فرصة نثبت فيها أرجحية الأمن قرب سواحل قطر إلاّ باجتثاث الوجود العثماني»؛[٣٧] لذلك قامت بريطانيا بتأكيد اتفاقاتها مع شيوخ البحرين حتى لا يصل إليها العثمانيون، واستمات البريطانيون في وضع حد لاندفاع العثمانيين ووقف زحفهم عند خور العديد،[٣٨] وبعد اضطرار الحكومة العثمانية إلى سحب قواتها العسكرية الفعلية من قطر اقتصادًا في النفقات، أصبح الشيخ جاسم وجهًا لوجه مع البريطانيين فبدأ الصراع بينهما.[٣٩]

عينت تركيا الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني قائمقاماً (نائبًا للحاكم)[٤٠] في قطر سنة ١٨٧٦ ، فلم يعد لوالده الشيخ محمد بن ثاني أي دور في الحياة العامة، حتى توفي في ديسمبر سنة ١٨٧٨. وهكذا أعلن قائد الحامية التركية أن قطر صارت «قائمقامية عثمانية» تتبع متصرفية[٤١] الأحساء[٤٢] إداريًا، وعلى رأسها الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني، وصار للدولة حق تعيين قضاة وإداريين لمختلف نواحي قطر.[٤٣]

كانت أمام البريطانيين أساليب مختلفة يعملون بها على تقويض سلطته، منها اتهامه بتشجيع بعض القبائل على ممارسة القرصنة، وخاصة تجاه السفن التابعة للبحرين خارج ساحل قطر. وكانت هذه السلطات تلزم الشيخ جاسماً باستعادة المسروقات، وإلقاء القبض على من قام بالقرصنة.[٤٤] ومثال ذلك ما حدث سنة ١٨٨٩ حين ارتكب بنو هاجر عملية قرصنة على سفينة من البحرين. وقد تزامن اتهام البريطانيين للشيخ جاسم بدعمه قبيلة بني هاجر مع الصراع الذي كان دائرًا بين قطر من جهة، والبحرين وأبو ظبي من جهة أخرى بسبب الزبّارة والعديد.[٤٥]

دخل الشيخ جاسم في صراع مع السلطات البريطانية التي كانت تحمي رعاياها من التجار الهنود – طائفة

البانيان– في مدينة الدوحة[٤٦]؛ وذلك بعد أن شعر بأن هؤلاء يعملون كجواسيس للإنجليز، ويسعون لتخريب اقتصاد قطر، ومنافسة تجارها في أرزاقهم، بحكم امتلاكهم للخبرة ورؤوس الأموال الضخمة، واحتكارهم تجارة اللؤلؤ[٤٧] عصب الحياة الاقتصادية في قطر آنذاك؛ فأغلق في مايو سنة ١٨٨٢ محلات التجار الهنود في الدوحة بالقوة، وأرغمهم على مغادرة قطر. وكان ذلك الإجراء سببًا في أزمة سياسية خطرة بين الشيخ جاسم والبريطانيين الذين أرسلوا إليه إنذارًا حمّلوه فيه المسؤولية كاملة عن كل الخسائر التي لحقت برعاياهم، و لم يأبه الشيخ جاسم بالإنذار. وفي نوفمبر سنة ١٨٨٢ زار موفد من المقيمية البريطانية في البحرين الدوحة للتحدث إلى الشيخ جاسم كحاكم مستقل لإمارة قطر،[٤٨] وقد وجد الشيخ جاسم أن الحكمة تقضي بالموافقة على دفع تعويض لأولئك التجار، لكنه رفض عودتهم إلى قطر من البحرين التي لجأوا إليها. واتضح أن الشيخ جاسماً فعل ذلك تأكيدًا لمبدأ السيادة الوطنية لقطر، وحفظًا لحقوق أبنائها الاقتصادية.[٤٩]

عملت السلطات العثمانية على تخريب العلاقات مع حاكم قطر الشيخ جاسم بالقيام ببعض الاستحداثات كإنشاء دائرة للجمارك، وفرض الضرائب على التجار، وعلى بيع اللؤلؤ ، بدلاً من أن توثق علاقتها به، وتقف إلى جانبه ضد المخططات البريطانية التي تستهدف القضاء على علاقة البلدين :قطر، والدول العثمانية. وقد عارض الشيخ جاسم تلك الإجراءات العثمانية التي رأى أنها ستؤدي إلى زيادة الأعباء المالية على المواطنين، وقد يدفعهم ذلك إلى الهجرة خارج البلاد،[٥٠] ولكن السلطات العثمانية أصرّت على تنفيذ مخططها غير عابئة بما قد يترتب على الأوضاع المعيشية للمواطنين؛ لأنها كانت في حاجة إلى المال للإنفاق على قواتها العسكرية. وقد أدى هذا الإصرار العثماني التركي على تنفيذ سياستها إلى استقالة الشيخ جاسم من القائمقامية، وأبلغ والي البصرة محمد حافظ باشا في يناير سنة ١٨٩٣ قرار استقالته، و لم يتراجع عنه ، ونقل مقر إقامته من الدوحة إلى منطقة الضعاين، ثم انتقل إلى منطقة الوجبة،[٥١] مع أن الوالي رفض الاستقالة وطلب منه الاستمرار في منصبه.

الحق أن الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني كان على علاقة وطيدة مع الدولة العثمانية طيلة حياته على الرغم من بعض الخلافات التي كانت تشوب علاقته مع متصرفي نجد وولاة البصرة بين الحين والآخر؛ فقد كان يعلن بكل وسيلة وفي كل مناسبة– باعتباره قائمقام الدولة العثمانية في قطر– ارتباطه وولاءه للدولة العثمانية الممثلة للخلافة الإسلامية.[٥٢] وكانت الدولة العثمانية تدرك مدى الحاجة إلى ولاء الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني ودعمه لها، وخاصةً في صراعها السياسي مع بريطانيا في منطقة خليج البصرة؛ ولذلك لم تقبل طلبات الاستقالة التي تقدم بها إليها من هذا المنصب نتيجة خلافاته مع ولاة البصرة،[٥٣] على الرغم من الشكاوى التي كانت ترد إلى العاصمة من متصرفي سنجق نجد وولاة البصرة من تصرفاته المستقلة في إدارة قطر، وعلى سبيل المثال: مُنح الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني رتبة رئاسة الباب من الدولة العثمانية في ٢٩ /٢/ ١٨٨٨، وهي من الرتب الرفيعة التي مُنحت لبعض أعيان المنطقة، وكانت هذه الرتبة في البداية خاصة بأصحاب الرتب العالية في القصر السلطاني، ثم أصبحت تُمنح لبعض كبار الشخصيات خارج القصر. ومما لا شك فيه أن منح الشيخ جاسم تلك الرتبة دل على الاهتمام الذي أولته الدولة العثمانية لقطر في تلك الفترة.[٥٤]

التوتر في العلاقات القطرية العثمانية والموقف البريطاني منه:

اتسمت سنوات (١٨٨٩– ١٨٩١) بمحاولات العثمانيين المتكررة لتشديد قبضتهم على قطر؛ وذلك بوضعها في إدارة عثمانية مباشرة؛ ففي يوليو سنة ١٨٨٩ زار عاكف باشا متصرف الأحساء الدوحة، واقترح– أثناء لقائه الشيخ جاسماً– مشروعًا لإنشاء مبنى حكومي في الدوحة، توضع فيه قوة من المشاة

والفرسان. ونصّ المشروع كذلك على تأسيس دار للعوائد الجمركية، وفرض ضرائب جديدة على السكان ولاسيما تجار اللؤلؤ، وأن يعين مدير لميناء الدوحة مسؤول عن تحصيل العوائد من السفن، وأن تفتح مكاتب بريدية في الزبارة والعديد.[٥٥] وقد اعترض الشيخ جاسم على هذا المشروع، وعدّه تدخلاً في شؤون بلاده؛ لذلك قدّم استقالته من منصب القائمقام سنة ١٨٩٠ [٥٦]، وأعلن أن حكم قطر انتقل من بين يديه إلى أيدي المسؤولين الأتراك، وذلك بقصد إحراج العثمانيين أمام السكان، لكن والي البصرة سرعان ما أدرك خطر الأمر؛ فرفض الاستقالة، والتمس منه العدول عنها والمضي في تأدية واجباته. ويبدو أن العثمانيين فعلوا ذلك خوفًا من أن تفلت الأمور من أيديهم، ولاسيما أنهم كانوا يعرفون ما كان يحظى به الشيخ جاسم من نفوذ في القبائل القطرية.

كانت النتيجة المباشرة لرفض مشروع عاكف باشا محاولة السلطات العثمانية إحلال شخص آخر مكان الشيخ جاسم ليكون أكثر طواعية، و يمكن به تنفيذ سياستها، ولكن جميع محاولاتها باءت بالفشل ؛ما ولّد لديها قناعة بأنه لا يمكن إزاحة الشيخ جاسم إلا بالقوة العسكرية.[٥٧] وقد كتب روبنسون –قائد السفينة البريطانية سفنكس– تقريرًا أرسله في نوفمبر سنة ١٨٩٨ إلى حكومته أشار فيه إلى تفاقم العداء بين القطريين والعثمانيين، وقال: إن الشيخ جاسماً يعيش في منطقة بعيدة عن العاصمة، وإن أخاه الشيخ أحمد يدير شؤون الحكم. وكتب المقيم السياسي البريطاني تقريرًا إلى حكومة الهند في١٩٠٣/١/١٩ ، ذكر فيه أن الشيخ جاسماً مازال الشيخ الفعلي الذي يعترف به في قطر القطريون والعثمانيون. وفي ١٩٠٣/٩/١٦ كتب الكولونيل كامبل – المقيم السياسي البريطاني في الخليج– تقريرًا إلى حكومة الهند بعد مقابلته الشيخ قال فيه: «إن الشيخ جاسماً أخبره بأن علاقته بالعثمانيين سيئة».[٥٨]

أخذ العثمانيون يتحينون الفرصة لكي يضعفوا نفوذ الشيخ جاسم ولاسيما بعد أن نجح في إحباط مشاريعهم في إعادة بسط النفوذ العثماني المباشر على قطر، وقد ظلّوا يعدّونه مسؤولاً عمّا كانوا يسمونه بالقلاقل والاضطرابات بين القبائل في قطر وعلى طول ساحلها. وقد وصلت العلاقة بين الشيخ جاسم والسلطات العثمانية إلى أزمة حادة سنة ١٨٩٣ أثناء قيادة والي البصرة محمد حافظ باشا حملة عسكرية في فبراير/ مارس من السنة المذكورة، استهدفت الشيخ جاسماً بحجة أنه خصّ نفسه منذ عدة سنوات برسوم قطر وتجارتها، وامتنع عن دفع الرسوم السنوية التي أقرّتها الدولة العثمانية.[٥٩]

معركة الوجبة:

وصل والي البصرة محمد حافظ باشا إلى الدوحة في١٨٩٣/٢/١٤ عن طريق الأحساء بدعوى إعادة الأمن في قطر إلى نصابه، واتخذ من القيادة العثمانية بالدوحة مقرًا لإقامته. وبعث برسالة إلى الشيخ جاسم في منطقة الوجبة، يدعوه إلى مقره للاستفسار عن الشكاوى التي تلقاها ضده من الإنجليز وغيرهم، لكن الشيخ الذي كان غير مطمئن لنيّة الوالي العثماني اعتذر عن عدم الحضور قائلاً في رسالته الجوابية إن صحته لا تسمح له بالحضور، وإنه أناب عنه أخاه الشيخ أحمد، ولكن الوالي رأى عدم تلبية الشيخ جاسم لدعوته رفضاً وتمرداً على الدولة العثمانية؛ فأقدم على اعتقال الشيخ أحمد ومرافقيه الستة عشر. وفي ١٨٩٣/ ٣/١٣ قاد الوالي العثماني قوة كبيرة، وتوجه صوب الوجبة لإلقاء القبض على الشيخ جاسم وتقديمه للمحاكمة، ولكن الشيخ جاسماً كان على علم بالاستعدادات التركية وتحركها نحو مقرّه؛ فأعدّ قواته وزودها بالسلاح والذخيرة والمواد الغذائية والماء ،ووضعها في مواضع مهمة على الطرق التي سوف تسلكها القوات التركية، ونجحت

الخطة ؛إذ وقعت القوات التركية في مصيدة قواته التي أنزلت بالقوات المعتدية هزيمة ساحقة بعد معركة شرسة استمرت من العاشرة صباحًا حتى الخامسة مساءً، وقُتل فيها يوسف أفندي قائد القوات العثمانية، وعدد كبير من قواته، وفرّ الوالي محمد حافظ إلى الباخرة التركية «المريخ» الراسية في ميناء الدوحة.[٦٠]

لا شك أن ما أحدثه الأتراك من شرخ في جدار العلاقات القطرية العثمانية كان له الأثر العميق في نفس الشيخ جاسم الذي فتح قلبه وبلاده لهم. وأكبر دليل على العلاقة الوطيدة بين الطرفين عزْل السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ – ١٩٠٩) والي البصرة محمد حافظ باشا من منصبه[٦١] ،والعفو عن الشيخ جاسم بن محمد ابن ثاني، بدلاً من اتخاذ أي إجراء عسكري ضده بعد معركة الوجبة سنة ١٨٩٣ التي أدت إلى تدمير الفيلق العثماني ومقتل (١٥٠) جنديًا، و(٨) ضباط على أيدي أتباع الشيخ جاسم نتيجة الخلافات التي وقعت بينه وبين والي البصرة حافظ باشا في ذلك الوقت.[٦٢]

وفي يونيو سنة ١٨٩٣ تم تسوية الوضع على أن يستقيل الشيخ جاسم من منصب القائمقام لأخيه الشيخ أحمد بن محمد بن ثاني، ويستعيد الأتراك الأسلحة التي استولى عليها أتباع الشيخ جاسم من الجنود الأتراك؛[٦٣] وبذلك استطاع جاسم أن يحبط خطة الدولة العثمانية للسيطرة على قطر.[٦٤] ومن ناحية أخرى هددت بريطانيا بإرسال حملة عسكرية لاحتلال قطر عقب معركة الوجبة؛ إذ أبلغ السفير البريطاني في الآستانة كلار فورد البابَ العالي[٦٥] يوم ١٨٩٣/٤/٢٢ عزم حكومته إرسال حملة عسكرية إلى قطر لبسط نفوذها. وكان الرد العثماني على السفير بأن جميع مناطق الساحل من البصرة شمالاً حتى ساحل عُمان جنوبًا تتبع النفوذ العثماني.[٦٦]

وقد أعرب الشيخ جاسم– بعد انتصاره على القوات العثمانية سنة ١٨٩٣– عن رغبته في تنظيم علاقاته مع بريطانيا وفق أسس جديدة قائمة على احترام استقلال قطر، وأفصح عن ذلك أثناء لقائه سنتي (١٨٩٨، ١٨٩٩) عدداً من المسئولين البريطانيين في الخليج العربي أمثال روبنسون قائد السفينة البريطانية «سفنكس» والرائد ميد المقيم السياسي البريطاني، وجاسكن مساعد الوكيل السياسي في البحرين سنة ١٩٠٠ [٦٧]. وقد بدأت سياسة التقارب بين قطر والإنجليز بسبب عجز الأتراك عن التعاون مع الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني من أجل المحافظة على استقلال قطر ووحدتها الوطنية،[٦٨] بالإضافة إلى الاعتداء المستمر للمأمورين والمديرين الذين كانت تعينهم السلطات التركية المسؤولة في قطر على رعاياهم، ووقوع منازعات كثيرة بين العسكريين من رجال الحامية العثمانية والقبائل البدوية على حدود قطر، التي كانت تدين للشيخ جاسم بالولاء[٦٩] في إطار الوحدة الوطنية القطرية. زد على ذلك ظهور ضعف الدولة العثمانية بعد هزيمتها أمام الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني، تلك الهزيمة التي تؤدي إلى القضاء على مركز الدولة في أعين العشائر البدوية؛ لذا أعلن الباب العالي أن ما فعله والي البصرة كان دون علم منه، واتجهت الدولة العثمانية إلى التفاوض مع جاسم.[٧٠]

فاوضت الدولة العثمانية الشيخ جاسماً في أعقاب معركة الوجبة لكي ينزل لها عن إدارة ميناء الزبارة تعويضًا ممّا لحق بكرامتها، ولكن لمّا عينت مديرًا عثمانيًا للميناء، وأرسلته مع جماعة من الجنود لاستلامه ورفع الراية العثمانية عليه، عارضت بريطانيا ذلك، وطالبت بإنزال الراية ونقل المدير، مبررة ذلك بأن معظم سكان الزبارة من المشتغلين باللؤلؤ ومدينون لتجار البحرين، لكن الدولة العثمانية اعترضت على الاحتجاج البريطاني؛ فوصل المقيم السياسي البريطاني إلى الزبارة في سبتمبر سنة ١٨٩٥ ثم قائد البحرية البريطاني، الذي حطّم السفن الموجودة في الميناء، التي كانت ترفع الراية العثمانية؛ ما جعل المدير العثماني يلوذ بالفرار، و يعني

تصميم بريطانيا على التصدي لأي وجود عثماني في قطر ، و بات واضحًا أن تدمير الميناء كان قضاء على النفوذ العثماني في سواحل قطر،[٧١] بالرغم من احتجاج الدولة العثمانية لدى الخارجية البريطانية.

حاولت السلطات العثمانية تأكيد نفوذها في قطر بين سنتي (١٩٠٢– ١٩١٠) بتعيين عدد من مديري نواحي: العديد، والوكرة، والزبارة، وجزيرة آل عمارة، فتصدى لها الشيخ جاسم و لم يتعاون مع العثمانيين في تسهيل مهمة هؤلاء المديرين، وتشجع الأهالي على طرد بعضهم، ما اضطر السلطات العثمانية إلى نقلهم وترك القطريين يديرون أمورهم بأنفسهم. و فشلت السلطات العثمانية أيضاً في إيجاد منافس للشيخ جاسم في حكم قطر بالرغم من محاولاتها المتكررة، ومن ذلك ما حدث سنة ١٨٨٦ حين دعمت محمد بن عبد الوهاب وزعيم الغارية لإزاحة الشيخ جاسم عن السلطة، وفشلت أيضاً في سعيها لتشجيع الشيخ أحمد شقيق الشيخ جاسم على تولي المسؤولية الكاملة عن شؤون قطر وانتزاع الحكم من أخيه. وكان مقتل الشيخ أحمد في ديسمبر سنة ١٩٠٥ فرصة الشيخ جاسم ليثبت أنه مازال قادرًا على مواجهة التحديات. وقد نجح في السيطرة على الموقف، وبدا كما يقول لوريمر: »مهتمًا أعظم الاهتمام بكل الأمور المتعلقة بعمله، وظل محتفظًا بكامل قواه وملكاته«،[٧٢] رغم تجاوزه الثمانين من العمر.

لقد أحدث مقتل الشيخ أحمد في ديسمبر سنة ١٩٠٥ تغيرًا في الموقف السياسي في قطر؛ فقد التقى الشيخ جاسم في أكتوبر ١٩٠٦ موفد المقيم السياسي البريطاني، ونقل إليه خبر تولي الشيخ عبد الله السلطة في قطر. وأظهرت الرسائل المتبادلة بين الشيخ جاسم وابنه الشيخ عبد الله من جهة، والمسئولين البريطانيين في الخليج العربي آنذاك من جهة أخرى، الطابع الودي بين الطرفين، وأظهرت أيضاً اهتمام البريطانيين بتطور الوضع الصحي للشيخ جاسم سنة ١٩١٣ [٧٣].

تجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ جاسماً رشّح ولده الشيخ عبد الله ليكون مسئولاً عن الدوحة، ووجّهه ودرّبه في سنوات ١٩٠٥وحتى وفاته ١٩١٣ على أن يكون حاكماً لقطر من بعده، و حرص على إنهاء كل ادعاء للعثمانيين بتبعية قطر لهم.

مشروع اتفاق بريطاني عثماني:

كانت الدبلوماسية البريطانية تؤدي دورها في قطر بشتى الوسائل المباشرة وغير المباشرة حتى أصبحت أداة مهمة لإقامة علاقات متينة وقوية مع شيوخ قطر، وأداة فعالة لفضّ النزاعات والارتباطات مع الدولة العثمانية، ولاسيما في سياسة قطر،وغدت العلاقات البريطانية القطرية تتأثر كثيرًا بالعلاقات البريطانية العثمانية.[٧٤]

الحقيقة أن الظروف السياسية كانت لمصلحة بريطانيا، منذ العقد الأول من القرن العشرين؛ فقد كانت الدولة العثمانية تمر بمرحلة ضعف؛ ما دفعها إلى الدخول في مفاوضات مع بريطانيا في فبراير سنة ١٩١١ لتحديد نفوذ البلدين في شرق الجزيرة العربية، انتهت بتوقيع اتفاقية في ١٩١٣/٧/٢٩ بين وزير الخارجية العثماني إبراهيم حقي باشا، ووزير الخارجية البريطانية السير إدوارد غراي، نزلت الدولة العثمانية بموجب المادة الحادية عشرة منها عن حقوقها ومسئوليتها في قطر، على أن تتعهد بريطانيا بالحفاظ على استقلال قطر، ويحكمها الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني وورثته من بعده.[٧٥] إن النص على انتهاء السيادة العثمانية على قطر إعلان لاستقلال شبه الجزيرة القطرية ، على الرغم من أن بريطانيا لم تلزم نفسها في هذا الاتفاق بالاعتراف مسبقًا باستقلال قطر استقلالاً تامًا بعد انتهاء السيادة العثمانية، و أعطت لنفسها الحرية في عقد معاهدات مع

حكامها من آل ثاني بشأن تجارة الأسلحة أو السلم البحري في الخليج، و لم يكن الأمر يستدعي نزولاً مماثلاً من بريطانيا؛ لأنه لم تكن لها أي ادعاءات بالسيادة في شبه الجزيرة القطرية، رغم أن هذا النص على انتهاء السيادة العثمانية في قطر جاء نتيجة مفاوضات بريطانية عثمانية، و لم يأت نتيجة مفاوضات قطرية عثمانية، وهذا فرضته طبيعة الصراع في الخليج الذي كان صراعًا بريطانيًا عثمانيًا.

لم يُكتب لهذا المشروع أن يدخل حيز التنفيذ؛ إذ كان الاتفاق على أن توافق عليه الدولتان، وأن تتبادلا الوثائق في ٣١ /١٠/ ١٩١٤، ولكن نذر الحرب العالمية الأولى حالت دون ذلك؛ إذ أوقف نشوبها تنفيذ هذا الميثاق، حتى إنهاء النفوذ العثماني في المنطقة بالقوة.[٧٦]

بقيت الحامية العثمانية في البلاد (٢٧٥ جنديًا وضابطًا) حتى تاريخ انسحابها في ١٥/٨/ ١٩١٥ بضغط من القوات البريطانية التي حاصرت القوات العثمانية في الخليج العربي بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ [٧٧]، على الرغم من أن الدولة العثمانية تخلت عن نفوذها في قطر، ورحلت الحامية العثمانية في سفينة حربية بريطانية، وصادرت بريطانيا بعد ذلك أسلحتهم وذخائرهم الموجودة في القلعة المحصنة بالدوحة، وأسدل الستار على آخر وجود تركي في قطر.[٧٨] ، وأصبحت لبريطانيا السيادة في قطر وفي منطقة الخليج دون منازع [٧٩] مع انتهاء الحرب العالمية الأولى التي خرجت منها منتصرة

انتقل الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني إلى رحمة الله تعالى في ١٩١٣/٧/١٧ بعد أن أسس دولته الحديثة، وكابد معاناة كبيرة مع الإنجليز والعثمانيين الذي حاولوا التدخل في شؤون بلاده وسياسته التي انتهجها، وكانت تقوم على الاستقلال والحرية والبناء والتطور، وخلفه في حكم إمارة قطر نجله الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثاني.[٨٠]

خاتمة:

شهدت العلاقات القطرية البريطانية الكثير من الأزمات في حياة الشيخ جاسم، بسبب الضغوط السياسية والاقتصادية والعسكرية والبريطانية عليه، ولكنها شهدت أيضاً انفراجاً كبيرًا وتحسنًا ملحوظًا منذ سنة ١٩١٣؛ إذ وقعت في هذا العام اتفاقية بين بريطانيا والدولة العثمانية لتحديد نفوذهما في شرق الجزيرة العربية. و تخلت الحكومة العثمانية بهذه الاتفاقية عن سيادتها في إمارة قطر[٨١]، و فقدت الدولة العثمانية في هذا العام صديقها وحليفها في المنطقة الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني حاكم قطر الذي وافاه الأجل وخلفه في الحكم ابنه الشيخ عبد الله بن جاسم آل ثاني، الذي وثق علاقات بلاده منذ اليوم الأول ببريطانيا، وقَبل التعاون معها في كافة المجالات المختلفة.[٨٢]

ويتضح من هذا العرض التاريخي:

أولاً– أن الشيخ جاسماً كان رجلاً سياسيًا وعسكريًا في آن واحد، انتهج سياسة مغايرة كثيراً عن بقية زعماء الخليج العربي في تعامله مع الدولة العثمانية بما يخدم مصالح بلاده وشعبه؛ فقد قبل التحالف مع الدولة العثمانية؛ لأنها دولة مسلمة، ولأنها تعهدت له بالدفاع عن البلاد، وبعدم التدخل في شؤون بلاده الداخلية. لقد كان الشيخ جاسم صاحب مبدأ لا يتزعزع؛ فقد ظل محافظًا على علاقة الودّ مع العثمانيين، ولكن حينما بدؤوا يتدخلون في شؤون البلاد الداخلية، حاربهم وانتصر عليهم.

ثانيًا– أن قطر لاقت كثيرًا من الصعاب تحت الراية العثمانية، وقدمت تضحيات كثيرة بدافع الرابطة

الإسلامية، لكنها لم تجد من الدولة العثمانية أي مساعدات تؤهلها للثبات في وجه مسلك الإدارة البريطانية في الهند، وسفن الأسطول البريطاني، وما كان من الدولة العثمانية سوى الاحتجاج على السياسة البريطانية واستنكارها، ولم تستفد قطر من احتجاج الساسة العثمانيين ولا من استنكارهم شيئًا.[٨٣]

ثالثًا– كانت العلاقات القطرية العثمانية علاقات تحالف وودّ رغم محاولات بعض ممثلي السلطة العثمانية في المنطقة خلْق جوّ من الاضطراب وعدم الثقة بين الطرفين، أما مع البريطانيين فقد نجح الشيخ جاسم في الصمود بقوة في وجه ضغوطهم عليه رغم محاولاتهم المتكررة استمالته إليهم.

رابعًا– ترتّب على عدم فهم العثمانيين للنزعة الاستقلالية القطرية أن خسروا موقعهم فيها، وساءت العلاقة بين الطرفين، وبلغت حد الاشتباك المسلح في معركة الوجبة سنة ١٨٩٣ التي خرج منها القطريون بانتصار كبير أكد المكانة والقوة اللتين وصلت إليهما قطر، وعزز موقفها أمام الطامعين فيها، وأصبحت هذه المعركة من أبرز معالم التاريخ القطري.[٨٤]

خامساً– اتصفت العلاقة القطرية البريطانية بالشك والحذر من الطرفين بصفة عامة ، ولاسيما في فترة حكم الشيخ جاسم؛ فقد أشار تقرير المقيم السياسي الموجه إلى حكومة الهند إلى العداء الذي يكنّه الشيخ جاسم للإنجليز بقوله: «الشيخ جاسم بن محمد ممتلئ بالعواطف المناقضة كليًا لشعور والده. لقد أظهر جاسم هذا روحًا عدائية للسلطة البريطانية في الخليج».[٨٥] وقد ذكرت روز ماري في كتابها عن نشأة قطر، أن شخصية الشيخ جاسم نفسه كانت سببًا في انزعاج البريطانيين؛ فهو جريء، ويدرك قيمة العداء العثماني البريطاني لمصلحته.[٨٦]

سادساً– كانت المصالح البريطانية في الخليج هي التي تتحكم في موقف بريطانيا من قطر وحاكمها؛ فقد عملت بريطانيا على تأمين طريقها البحري المؤدي إلى ممتلكاتها في الهند، التي على أساسها خاضت حروبًا مع القوى الخليجية، بحجة قمع القرصنة، وتجارة الأسلحة، ومكافحة تجارة الرقيق في مختلف أنحاء الخليج. وتميزت سياسة الشيخ جاسم مع بريطانيا بمسايرته للأمر الواقع، وعزوفه عن عقد اتفاقيات مع حكومة الهند البريطانية حتى نهاية حكمه؛[٨٧] وذلك من منطلق حرصه الشديد على استقلال قطر، وضمان الأمن للقطريين، بالإضافة إلى التمتع بمزايا تجارة اللؤلؤ التي كانوا يمارسونها، ومنع رعايا بريطانيا التجار من منافستهم؛ لذا لم تجد بريطانيا موطئ قدم لها في قطر أثناء فترة حكمه.[٨٨]

سابعاً– كان شيوخ الجزيرة العربية وأمراؤها يعبرون عن ولائهم للدولة العثمانية، ويتعاطفون معها، ويلتفون حولها بتأثير العاطفة الإسلامية والولاء الديني– برغم تعاهدهم وتعاقدهم مع بريطانيا بمعاهدات – باعتبار أن الدولة العثمانية تمثل المسلمين في العالم بصفتها وارثة الخلافة الإسلامية. ومن هنا كانت بريطانيا تراعي شعور الشيوخ وحكام الخليج في إظهار ولائهم للدولة العثمانية، وتكتفي بالاحتجاج فقط على التصرفات العثمانية.[٨٩]

الهوامش:

(١) الموسوعة العربية العالمية/ رئيس التحرير أحمد مهدي الشويخات.، الرياض: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤ (الإصدار الرقمي)

(٢) عبيدان، يوسف محمد، "دولة قطر في ظل حكم أسرة آل ثاني"،– مجلة التاريخ العربي: تصدر عن جمعية المؤرخين المغاربة،– ع٤٤، ربيع ٢٠٠٨، ص ١٧ (نسخة إلكترونية متاحة بتاريخ ٢٤ مارس ٢٠١٢ على الرابط: www.attarikh-alarabi.ma).

(٣) من أهم مدن قطر الأثرية، ازدهرت في القرن الثاني عشر الهجري، تقع في شمال البلاد بينها وبين جزيرة البحرين، وتشتهر بقلعتها التاريخية، وتبعد عن الدوحة حوالي (١٠٥) كم. راجع:

الجاسر، حمد بن محمد، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، الرياض، دار اليمامة، ١٩٧٩ (ج٢، المنطقة الشرقية، ص ٨٠٦).

(٤) سيد، أشرف صالح محمد، شبه جزيرة قطر: صفحة من تاريخ الخليج العربي، مقالات، دار ناشري (الكويت)، متاحة بتاريخ ١٥ إبريل ٢٠١١ على الرابط: (www.nashiri.net/articles). وانظر أيضًا: قطر: الكتاب السنوي ٢٠٠٩، إعداد إدارة البحوث وتحليل وتقنية المعلومات، الدوحة، وزارة الخارجية، ٢٠١٠، ص١٨

(5) Al Abdulla, Yousof Ibrahim. A Study in Qatari-British Relations (1914 – 1945).- Montréal, 1981. P. 15

(٦) عبد الظاهر، حسن عيسى، "الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني"، مجلة الدوحة، العدد ١٠٩، يناير ١٩٨٥، ص ١٧

(٧) القحطاني، عبد القادر بن حمود، "موقف الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني من التنافس العثماني البريطاني في المنطقة"، ضمن أبحاث الندوة التاريخية المصاحبة لاحتفالات اليوم الوطني لدولة قطر (١٦ – ١٧ ديسمبر ٢٠٠٨) تحرير جمال محمود، أحمد زكريا الشلق، يوسف العبد الله، محمد همام فكري،الدوحة، مركز قطر الفني، ٢٠٠٨، ص ١٧٨

(٨) الصراف، محمود حسن، تطور قطر السياسي والاجتماعي في عهد الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني، القاهرة، ب.د، ١٩٨٠، ص ٧١، ٧٢

روي عن الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني أنه كان يجهز الغواصين بحاجاتهم، ويستوفي من اللؤلؤ الذي يشتريه منهم بقيمته الحقيقية، وقد فتح مجالات واسعة لهذه التجارة، درت الأرزاق على كثير من المواطنين، وتوسع في تجارته مباشرة مع الهند لتسويق اللؤلؤ، وكان يشجع أبناء وطنه على تجارتهم تلك ،ويحميهم من استغلال المستغلين والقراصنة، ووقف دون المحاولات الكثيرة التي كانت تعمل على محاصرة تجارة وطنه ومواطنيه بالقيود؛ فرفض الجمارك، وكل ما يمت للربا بصلة. انظر:

عبد الظاهر، حسن عيسى، "الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني"، مجلة الدوحة،العدد ١٠٩، يناير ١٩٨٥، ص١٧، ١٨

(٩) وثائق التاريخ القطري من الوثائق البريطانية والعثمانية (١٨٦٨ – ١٩٤٩) الدوحة، المطابع الأهلية، د.ت،ص ١٠ ، ١١ (ج٢، قسم الوثائق – الديوان الأميري)

(١٠) المنصور، عبد العزيز محمد، التطور السياسي لقطر في فترة ما بين (١٨٦٨ – ١٩١٦) الطبعة الثانية.،الكويت، مطبعة ذات السلاسل، ١٩٨٠، ص ٢٤

(١١) عودة، جهاد، "في أصول العلاقات البريطانية القطرية"، موقع جهاد عودة، متاح بتاريخ ٢٤ أكتوبر ٢٠١٢ على الرابط: (www.gehadauda.com)

(١٢) منذ أواخر القرن العاشر الهجري –السادس عشر الميلادي – نجحت بريطانيا في تأكيد وجودها الأوروبي كقوة ناشئة لا يستهان بها، .وإثر انتصارها على إسبانيا القوة العظمى آنذاك في معركة الأرمادا سنة ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م بدأت السياسة البريطانية توجه أنظارها نحو ثروات الشرق ومشاركة البرتغاليين في اقتسام خيرات الهند، و لم تنطلق الأساطيل البريطانية بثبات نحو المياه الشرقية إلا عندما وضع أساس الإدارة الاستعمارية البريطانية الجديدة الممثلة في شركة الهند الشرقية البريطانية التي تأسست بمرسوم ملكي في أواخر سنة ١٠٠٩/١٦٠٠م. للمزيد عن الوجود البريطاني في منطقة الخليج راجع:

المريطب، منال، "التنافس الأوربي حول منطقة الخليج في مطلع العصور الحديثة"، دورية كان التاريخية، العدد الثامن، يونيو ٢٠١٠، ص ٥٤ ، ٥٥ (http://kanhistorique.org)

(١٣) القحطاني، عبد القادر حمود، "العلاقات القطرية البريطانية ١٩١٤ – ١٩٤٩م"، مجلة التاريخ العربي: تصدر عن جمعية المؤرخين المغاربة، ع٤٤، ربيع ٢٠٠٨، ص٧٧ (نسخة إلكترونية متاحة بتاريخ ٢٤ مارس ٢٠١٢ على الرابط: www. attarikh-alarabi.ma).

(١٤) العناني، أحمد، "الشيخ قاسم بن محمد آل ثاني ومشكلات الزعامة المحلية في الخليج العربي"، جامعة البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٨١، ص ١٩٠ (م١٣/ع٢)

(١٥) قطر في دليل الخليج (كتاب مستقل) الطبعة الأولى، قصر الدوحة، قسم الوثائق والأبحاث بمكتب الأمير،١٩٨١،ص ٣٦ – ٤٠

Albaharna, Husain M- The Arabian Gulf States: Their Legal and Political Status and Their International Problems.- 2nd rev. ed.- Beirut: Librairie du Liban, 1975. P. 36.

(١٦) العقاد، صلاح، الاستعمار في الخليج (.....) العربي.– القاهرة، مكتبة الأنجلو، ١٩٥٦، ص ١٦٣، ١٦٤

(١٧) جابر، موزة سلطان، التطور الاقتصادي والاجتماعي في قطر (١٩٣٠ – ١٩٧٣) الطبعة الأولى،الدوحة، دار الشرق، ٢٠٠١، ص ٤٧٤ ، ٤٧٥

(١٨) قاسم، جمال زكريا، الخليج العربي، دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٨٤٠ – ١٩١٤) القاهرة، جامعة عين شمس، كلية الآداب، ١٩٦٦، ص ١٨١

(١٩) العيدروس، محمد حسن، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ط٢، الجيزة، عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٨، ص ١٧١

(٢٠) نخلة، محمد عرابي، تاريخ الأحساء السياسي (١٨١٨ – ١٩١٣) الكويت، منشورات ذات السلاسل، ١٩٧٤، ص ٩١

(٢١) نوار، عبد العزيز سليمان، تاريخ العراق الحديث، من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٨، ص ٤١٣

(٢٢) القهواتي، حسين محمد، دور البصرة التجاري في الخليج العربي (١٨٦٩ – ١٩١٤) بغداد، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، ١٩٨٠، ص ١٠٨

(٢٣) انتزع العثمانيون منطقة الأحساء والقطيف من الدولة السعودية الثانية سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م. راجع: العثيمين، عبد الله الصالح، تاريخ المملكة العربية السعودية، الرياض، د.ن، ١٤٩١هـ. (ج١، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥). وقد ظل آل سعود منذئذ حريصين على استعادة منطقة الأحساء، وجرت محاولة في هذا السياق سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م ذكرتها مصادر بريطانية كثيرة، وأغفلتها المصادر السعودية المعاصرة المتاحة. راجع: السعدون، خالد بن حمود، «أحداث لواء الأحساء سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م»، مجلة الدّارة، س ٣٧ العدد الثاني، ربيع الآخر ١٤٣٢هـ، ص ٩ – ٣٦

(24) Kelly, John Barrett, Britain and the ..... Gulf (1795 – 1880).- Oxford: Clarendon Press, 1968. P. 730

(٢٥) كان للشيخ جاسم بن محمد بن ثاني مكانة خاصة لدى الدولة العثمانية منذ أن دعا القوات العثمانية إلى قطر ضمن حملتها على الأحساء سنة ١٨٧١ ،ورفع العلم العثماني على قصره على الرغم من توقيع والده اتفاقية مع الإنجليز قبل ثلاثة أعوام فقط من الحملة

الشلق، أحمد زكريا، عقيل، مصطفى، العبد الله، يوسف، تطور قطر السياسي من نشأة الإمارة إلى استقلال الدولة.– الطبعة الثالثة،الدوحة، مطابع رينود الحديثة، ٢٠٠٦، ص ٩٨

(٢٦) عُيّن الشيخ جاسم بن ثاني قائمقامًا عليها بلا راتب لعدم وجود أي دخل لقطر آنذاك، فضلاً عن أنه لم يكن بحاجة إلى الراتب؛ لأنه كان يشتغل بتجارة اللؤلؤ، ويعد من أغنياء المنطقة. راجع: قورشون، زكريا، قطر في العهد العثماني (١٨٧١ – ١٩١٦) بيروت، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٨، ص ٨٦، ٨٧

(٢٧) الجميل، سيار، «شخصية الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني وعلاقاته مع القوى المحيطة»، ضمن أبحاث الندوة التاريخية المصاحبة لاحتفالات اليوم الوطني لدولة قطر (١٦ – ١٧ ديسمبر ٢٠٠٨)/ تحرير جمال محمود، أحمد زكريا الشلق، يوسف العبد الله، محمد همام فكري، الدوحة، مركز قطر الفني، ٢٠٠٨، ص ١٢٦

(٢٨) لجنة تدوين تاريخ قطر: مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، الدوحة، مؤسسة دار العلوم للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٦، (ج٢، ص ٩٢٨ – ٩٣٤)

(٢٩) الخصوصي، بدر الدين عباس، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر.– الطبعة الأولى، الكويت، مطبعة ذات السلاسل، ١٩٨٨، (ج٢، ص ٣٧ – ٣٩)

تذكر بعض المصادر التاريخية أن الشيخ جاسماً كان يطمح إلى أن تكون دولته ذات شأن في منطقة شبه الجزيرة العربية والخليج بحيث تشمل أجزاء خارج شبه جزيرة قطر، ولكن الإنجليز الذي كانوا يرتبطون بمعاهدات واتفاقيات مع إمارات الخليج العربية الأخرى حالوا دون تحقيق طموحاته في التوسع وإقامة دولته الكبرى في المنطقة. انظر:

الكمال، محمد سعيد حسن، تاريخ قطر في القديم والحديث، وأشعار الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني، الطبعة الخامسة، الرياض، مطابع الخالد، ١٤٢٠هـ،ص ٤٢

(٣٠) القحطاني، عبد القادر حمود، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر،الطبعة الأولى، الدوحة، مطابع رينودا الحديثة، ٢٠٠٨، ص ١٦

(٣١) إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني، أمراء وغزاة: قصة الحدود والسيادة الإقليمية في الخليج (دراسة وثائقية) ط٢، بيروت، دار الساقي، ١٩٩١، ص ٤٩

(٣٢) الجميل، سيار، مرجع سابق، ص ١٢٧

(٣٣) ياغي، إسماعيل أحمد، شاكر، محمود، تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر (١٤٩٢– ١٩٨٠) الرياض، دار المريخ للنشر، ١٩٩٥ (ج١، الجناح الأسيوي، ص ١٠٧)

(٣٤) إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني، مرجع سابق. ص ٤٠

(٣٥) نوار، عبد العزيز سليمان، تاريخ العراق الحديث: من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٨، ص ٤٢٧

(٣٦) إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني، مرجع سابق، ص ٢١٩

(٣٧) العلاف، إبراهيم خليل، الشيخ جاسم آل ثاني ودوره في استقلال قطر ومواجهة التحديات المحلية والأجنبية (١٨٧٨– ١٩١٣) جامعة الموصل، مركز الدراسات الإقليمية، ٢٠١٢، متاح بتاريخ ٣٠ إبريل ٢٠١٢ على الرابط: (http://www.regionalstudiescenter.net)

(٣٨) العُديد: تصغير العدّ، والعدّ هو البئر الغزيرة الماء، التي لا ينضب ماؤها صيفًا عندما تقل الأمطار. وخور العديد رأس من البحر، يقابل رأس سلوى من الشرق، على مدخل شبه جزيرة قطر من شرقها، ورأس سلوى من غربها. ويمتد الشاطئ الجنوبي الشرقي لخور العديد على طول الرأس الصخري الذي يقع رأس (أبو قميس) في أبعد مكان فيه، راجع:

الجاسر، حمد بن محمد، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، الرياض، دار اليمامة، ١٩٧٩ (ج٣: المنطقة الشرقية، ص ١١٤٣)

(٣٩) العلاف، إبراهيم خليل، مرجع سابق

(٤٠) قائم مقام: النائب عن صاحب الصلاحية والأمر. وهو اصطلاح ورتبة كانت سارية زمن الحكم العثماني إبان فترة التوسع من أجل حسن التدبير، و يقوم مكان القائم في الجولات والأعمال في حالة غياب القائم عن العمل في الجهة المكلفه به. انظر:

صابان سهيل، المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، الرياض،مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠٠٠، ص ١٧٠

(٤١) المتصرفية: كان التشكيل الإداري في الدولة العثمانية قبل عهد التنظيمات على هذا النحو: السناجق تشكل الولايات، والأقضية تشكل السناجق، والنواحي (البلدات) تشكل الأقضية. وكانت الولايات بإدارة أمير الأمراء، والسناجق بإدارة أمير السناجق، إذ كانوا أمراء إداريين وفي الوقت ذاته قوادًا عسكريين. أما في عهد التنظيمات فقد فصلت القيادة العسكرية والإمارة الإدارية بعضهما عن بعض، فأصبحت كل واحدة منهما مستقلة؛ فألغي منصب أمير السنجق، ووضع مكانه موظف سمي بالمتصرف، وعلى هذا فعدة أقضية كانت تشكل متصرفية، وعدة متصرفيات تشكل ولاية، انظر:

صابان، سهيل، الجزيرة العربية: بحوث ودراسات من وثائق الأرشيف العثماني والمصادر التركية، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠٠٥، ص ٣٤١ ،هامش (٢)

(٤٢) الأحساء أو المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية كانت تشكل الجزء الأكبر من إقليم متحد على الشاطئ الغربي للخليج العربي، يمتد من البصرة في الشمال إلى عمان في الجنوب. كان هذا الإقليم منذ فترات موغلة في القدم جزءاً هاماً من أرض الجزيرة العربية، وذلك لخصب أراضيه، ووفرة مياهه، بالإضافة إلى كونه ملتقى للطرق التجارية الهامة التي كانت تربط الجزيرة العربية بفارس والهند، وبلدان شرق إفريقية، وبعبارة أخرى. كانت الأحساء إحدى نوافذ الجزيرة العربية على مياه الخليج العربي، وكانت موانئها –كالعقير والقطيف– من أهم موانئ شرق الجزيرة العربية. انظر:

نخلة، محمد عرابي، تاريخ الأحساء السياسي (١٨١٨ – ١٩١٣) الكويت، منشورات ذات السلاسل، ١٩٧٤، ص ٦

(43) RS Zahlan, The Creation of Qatar.- London: Croom Helm, 1979. P46.

(٤٤) مقال بعنوان: "الصراع على شبه جزيرة قطر بين العثمانيين والبريطانيين"، مجلة الواحة، فصلية تُعنى بشؤون التراث والثقافة والأدب في الخليج العربي، ع٣، أكتوبر ٢٠٠٧، (نسخة إلكترونية متاحة بتاريخ ٩ نوفمبر ٢٠١٢ على الرابط: (www.alwahamag.com)

(٤٥) كان على بريطانيا أن تتعامل بشكل خاص مع قطر بهدف منع تجارة الأسلحة؛ لأنها كانت أحد المداخل الرئيسة لوصول الأسلحة إلى جنوب نجد والجزيرة العربية. ولقد شجعت بريطانيا إدامة الصراعات بين مشيخات الخليج العربي من أجل إضعافها وإدامة سيطرتها عليها. وفي سنة ١٨٨٩ أرسل جاسم آل ثاني شيخ قطر أسلحة وذخائر حربية إلى المناطق التابعة له؛ وذلك في أثناء عملياته ضد أبو ظبي، ويبدو أن بريطانيا كانت تؤيده على الرغم من احتجاجها على هذه العملية.

الهاشمي، رحيم كاظم محمد، تجارة الأسلحة في الخليج العربي (١٨٨١ – ١٩١٤) ط١،دمشق، دار علاء الدين، ٢٠٠٠. (نسخة إلكترونية متاحة بتاريخ ٩ نوفمبر ٢٠١٢ عبر موقع الدكتور سعد العبدالله الصويان،(http://www.saadsowayan.com/articles/Tribal/t41.pdf)

(٤٦) عن التجار البانيان في الخليج العربي راجع: القاسمي، نورة محمد، الوجود الهندي في الخليج العربي (١٨٢٠ – ١٩١٧)، الشارقة، دائرة الثقافة والإعلام، ١٩٩٦، ص ٢٦٦ – ٢٦٨

(٤٧) يرتبط تاريخ الإنسان الخليجي عامة والقطري خاصة بالبحر، فكان مصدر الرزق الأساسي لأبناء هذه المنطقة. وموقع قطر وسط الخليج العربي، الممتلئ باللؤلؤ جعلها بالقرب من أغنى مغاصات اللؤلؤ في العالم، فكان أهلها يعيشون على اللؤلؤ وتجارته، فأصبحوا تجارًا نشيطين، وصيادين حاذقين، ومغامرين شجعاناً، وغطاسين مهرة ينتزعون اللؤلؤ والجواهر من قاع البحر ويقايضون به ما يحتاجون إليه. انظر:

الشامي، أحمد، "دول الخليج وعلاقتها التجارية في العصور الوسطى"، مجلة الدوحة، عدد أغسطس ١٩٧٨، ص ١٣٦

(٤٨) كريم، عبد الكريم، "شبه جزيرة قطر: القلب النابض للخليج العربي"، مجلة التاريخ العربي: تصدر عن جمعية المؤرخين المغاربة، ع٤٤، ربيع ٢٠٠٨. (نسخة إلكترونية متاحة بتاريخ ٢٦ أكتوبر ٢٠١٢ على الرابط: www.attarikh–alarabi.ma).

(٤٩) العلاف، إبراهيم خليل، مرجع سابق

(٥٠) القحطاني، عبد القادر بن حمود، "موقف الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني"، ص ١٨٥

(٥١) لوريمر، ج.ج، دليل الخليج، الطبعة الأول الدوحة، مطابع علي بن علي، ١٩٧٥، ص ١٢٢٤– ١٢٢٦ (ج٣/ القسم التاريخي)

(٥٢) أوغلو، سنان معروف، "موقف الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني من حروب البلقان"، ضمن أبحاث الندوة التاريخية المصاحبة لاحتفالات اليوم الوطني لدولة قطر (١٦ – ١٧ ديسمبر ٢٠٠٨)/ تحرير جمال محمود، أحمد زكريا الشلق، يوسف العبد الله، محمد همام فكري، الدوحة، مركز قطر الفني، ٢٠٠٨، ص ٣١٣ ، ٣١٤

(٥٣) على الرغم من تقديم الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني طلبات إلى ولاة البصرة بالاستقالة من منصبه كقائمقام في أعوام ١٨٩٣– ١٨٩٨ وعلى الرغم من حدة الشكاوي بحق الشيخ جاسم في تلك الفترات من ولاة البصرة وتوصيتهم بقبول استقالته واستبداله، إلا أن السلطان عبد الحميد الثاني لم يقبل طلبات الاستقالة هذه، وأبقى الشيخ جاسماً في هذا المنصب. انظر:

(٥٤) قورشون، زكريا، "علاقة الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني بالسلطان عبد الحميد الثاني"، ضمن أبحاث الندوة التاريخية المصاحبة لاحتفالات اليوم الوطني لدولة قطر (١٦ – ١٧ ديسمبر ٢٠٠٨) تحرير جمال محمود، أحمد زكريا الشلق، يوسف العبد الله، محمد همام فكري، الدوحة، مركز قطر الفني، ٢٠٠٨، ص ٢٨٢ – ٢٨٩

(٥٥) صابان، سهيل، "الألقاب والرتب الممنوحة للشيخ جاسم بن محمد بن ثاني من الدولة العثمانية"، ضمن أبحاث الندوة التاريخية المصاحبة لاحتفالات اليوم الوطني لدولة قطر (١٦ – ١٧ ديسمبر ٢٠٠٨) تحرير جمال محمود، أحمد زكريا الشلق، يوسف العبد الله، محمد همام فكري، الدوحة، مركز قطر الفني، ٢٠٠٨، ص ٢٩٥

(٥٦) منسي، عبد الله سراج عمر، المواجهة العثمانية البريطانية في الخليج العربي (١٨٦٩ – ١٩١٤) د.م: د.ن، ١٩٩٤، ص ١٦٦

(57) SALDANA, J.A., The ..... Gulf Precis.- London: Archive Edition, 1986. (Vol. 3, P. 166).

(٥٨) العلاف، إبراهيم خليل، مرجع سابق

(٥٩) شهداد، إبراهيم، "جاسم الكبير وسياساته في فرض الشخصية الاستقلالية لإمارة قطر: دراسة تحليلية"، ضمن أبحاث الندوة التاريخية المصاحبة لاحتفالات اليوم الوطني لدولة قطر (١٦ – ١٧ ديسمبر ٢٠٠٨) تحرير جمال محمود، أحمد زكريا الشلق، يوسف العبد الله، محمد همام فكري، الدوحة، مركز قطر الفني، ٢٠٠٨، ص ١٤٣

(٦٠) العلاف، إبراهيم خليل، مرجع سابق

(٦١) عبد العزيز، محمد الحسيني، حضارة الكويت ودول الخليج العربي، الطبعة الثانية، الكويت، مطبعة ذات السلاسل، ١٩٧٥، ص ١٩٧

(٦٢) العناني، أحمد، "الوجود التركي في قطر (١٩٧١ – ١٩١٥)" مجلة المؤرخ العربي، ع١٢، بغداد ١٩٨٠، ص ٣٩٨

(٦٣) أوغلو، سنان معروف، موقف الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني من حروب البلقان، ص ٣١٤

تجدر الإشارة إلى أن معركة الوجبة كانت نموذجًا للتكتيك الحربي الذي طالما لجأ إليه آل ثاني كلما ضاقت بهم السبل، وهو يعتمد على البعد عن المدن واللجوء إلى الداخل حيث الصحراء التي تفقد فيها الجيوش النظامية فاعليتها، وتنجح القوات القبلية غير النظامية المعتمدة على حرب العصابات. انظر:

المنصور، عبد العزيز، التطور السياسي لقطر (١٨٦٨ – ١٩١٦) ط٢، الكويت، دار ذات السلاسل، ١٩٨٠، ص٢٣٣، عقيل، مصطفى، "التنافس العثماني البريطاني حول قطر (١٨٩٢–١٩٠٢)"،مجلة دراسات تاريخية، م ١٩، العدد ٦٣– ٦٦، ١٩٩٨، ص ١٣٨ – ١٤٠

(٦٤) الصراف، محمود حسن، تطور قطر السياسي والاجتماعي في عهد الشيخ جاسم بن محمد آل ثاني، الدوحة، ١٩٨٠، ص ١٤٧

(٦٥) إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني، مرجع سابق، ص ٢٧٨

(٦٦) الباب العالي مقر رئيس الوزراء أو مقر الحكم في الدولة العثمانية، وقد أنشأه السلطان محمد الرابع سنة ١٦٥٤م ، وأطلق اسم المكان بعد ذلك على ساكنه ،وهو يعني الوزير الأعظم. وكان للباب العالي أهمية كبيرة في القرن التاسع عشر الميلادي ولاسيما في عهدي السلطان عبد العزيز والسلطان عبد الحميد الثاني. راجع:

صابان، سهيل، الجزيرة العربية: بحوث ودراسات من وثائق الأرشيف العثماني والمصادر التركية، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠٠٥. ص ٣٤١ هامش (١)

(٦٧) الخصوصي، بدر الدين عباس، دراسات في تاريخ الخليج العربي، ص ١٣٠ – ١٣٣

(٦٨) العلاف، إبراهيم خليل، مرجع سابق

(٦٩) الشيخ، رأفت غنيمي، «آل ثاني واستقلال قطر»، مجلة التاريخ العربي: تصدر عن جمعية المؤرخين المغاربة.– ع٤٤، ربيع ٢٠٠٨، (نسخة إلكترونية متاحة بتاريخ ٢٥ أكتوبر ٢٠١٢ على الرابط (www.attarikh–alarabi.ma).

(٧٠) الألوسي، محمود شكري، تاريخ نجد، تحقيق وتعليق محمد بهجت الأثري ط٢، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤٧هـ، ص ٣٨

(٧١) قاسم، جمال زكريا، مرجع سابق، ص ٢٤٦

(٧٢) العلاف، إبراهيم خليل، مرجع سابق

(٧٣) الشلق، أحمد زكريا، "علاقة الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني بالقوى الخارجية"، ضمن أبحاث الندوة التاريخية المصاحبة لاحتفالات اليوم الوطني لدولة قطر (١٦ – ١٧ ديسمبر ٢٠٠٨) تحرير جمال محمود، أحمد زكريا الشلق، يوسف العبد الله، محمد همام فكري، الدوحة، مركز قطر الفني، ٢٠٠٨،ص ٢٣٥ ، ٢٣٦

(٧٤) محمد، صالح خضر، "نشاط القناصل البريطانيين في قطر في عهد أسرة آل ثاني ١٨٦٨ – ١٩١٤"، مجلة دراسات إقليمية (جامعة الموصل)، الإصدار ٢١، ٢٠١١، ص ٢٠٣

(٧٥) الدباغ، مصطفى مراد، قطر: ماضيها وحاضرها، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ١٩٦١، ص١٩٤

(٧٦) الشِّلق، أحمد زكريا، فصول من تاريخ قطر السياسي، ط١، الدوحة، ١٩٩٩، ص ٦٢

(٧٧) العقاد، صلاح، التيارات السياسية في الخليج العربي من بداية العصور الحديثة حتى أزمة ١٩٩٠، القاهرة: مكتبة الأنجلو، ١٩٩٢،ص ١٨٨ – ١٩١

(٧٨) الشيخ، رأفت، تاريخ العرب المعاصر.– الجيزة: عين للدراسات والبحوث، ١٩٩٦، ص ٢١

(٧٩) العابد، فؤاد سعيد، سياسة بريطانيا في الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، الكويت، منشورات ذات السلاسل، ١٩٨١ (ج٢، ١٨٥٣ – ١٩١٤، ص ٢٥٥ – ٢٦٢)

(٨٠) عبد الله، محمد مرسي، دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها، ط١، الكويت، دار القلم، ١٩٨١، ص ٢٢٥

(٨١) عبد العزيز، موضي بنت منصور، الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت (١٩٢٣ – ١٩٢٤) ط٢،بيروت، دار الساقي، ١٩٩٢، ص ٢٠ ، ٢١

(٨٢) عبد الله، محمد مرسي، دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها.– ط١، الكويت، دار القلم، ١٩٨١ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥

(٨٣) المنصور، عبد العزيز محمد، التطور السياسي لقطر (١٨٦٨ – ١٩١٦)، الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٧٥، ص ٨٢

(٨٤) عبد الكريم، ناهد، "أولويات السياسة الخارجية القطرية (١٨٦٨ – ١٩٣٥)"، مجلة التاريخ العربي: تصدر عن جمعية المؤرخين المغاربة، ع٤٤، ربيع ٢٠٠٨. (نسخة إلكترونية؛ متاح بتاريخ ٢٦ أكتوبر ٢٠١٢ على الرابط: (www.attarikh-alarabi.ma)

(٨٥) الخترش، فتوح عبد المحسن، المنصور، عبد العزيز محمد، مصادر تاريخ قطر (١٨٦٨ – ١٩١٦) ط٢، الكويت، دار ذات السلاسل، ١٩٨٤، ص ١٠٥

(86) Zahlan, Rosmarie Said, The Creation of Qatar.- London: Croom Hellm Ltd., 1979. P. 47

(٨٧) المنصور، عبد العزيز محمد، التطور السياسي لقطر (١٨٦٨ – ١٩١٦) الطبعة الأولى، الكويت، ١٩٧٥، ص ٣

(٨٨) الريحاني، أمين، تاريخ نجد الحديث وملحقاته، وسيرة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما، ط٤، بيروت، مؤسسة الريحاني، ١٩٧٠، ص ١٠٦

(٨٩) ياغي، إسماعيل أحمد، بحث بعنوان "سياسة مدحت باشا والي العراق العثماني تجاه الخليج العربي (١٨٦٩ – ١٨٧٢) ندوة رأس الخيمة التاريخية الثانية: الصلات التاريخية بين الخليج العربي والدولة العثمانية (مجموعة أبحاث) ط١، رأس الخيمة، مركز الدراسات والوثائق،٢٠٠١، ص ٤٦، ٤٧

«لم نكن ضعفاء البتة في الأيام الخالية[1]»

النساء والغوص على اللؤلؤ في إمارات الخليج الجنوبية– ١٨٧٠/١٩٥٠

فكتوريا بننزير هاي تاور

تمهيد:

بصفة عامة تركِّز صناعة اللؤلؤ بإمارات الخليج الجنوبية في الرجال، وممارسات الغوص على اللؤلؤ، وتختزل كافة مناقشات الحياة الاجتماعية في جهود الرجال ومحنهم في البحر.ولصعوبة الغوص على اللؤلؤ كان العاملون في ذلك النشاط يتعاونون في بيئة اجتماعية انطوت على بعض مجالات الدعم والتقدم، لكن مشاركة الرجال في الغوص على اللؤلؤ لم تكن لتتحقق بدون عمل النساء، وهنّ وإن لم يشاركن في الغوص على اللؤلؤ مباشرة فقد كنّ مسؤولاتٍ عن تماسك الأسرة في الأشهر التي كان فيها العاملون في صناعة اللؤلؤ في البحر. كانت النساء يعملن وينتجن بالواحات، ويشرفن أيضاً على جني التمور، وصون العلاقات الاجتماعية مع الأقارب، وكل ذلك مكّن الرجال من التوجّه إلى البحر والبقاء فيه بين ثلاثة وأربعة أشهر صيفاً، لكن الوصول إلى هذه المعلومات صعب تماماً؛ لأن الوثائق البريطانية نادراً ما تتعرض للعلاقات الاجتماعية مباشرة، ولاسيما في جنوب الخليج؛ ولذا تعتمد هذه المقالة على ما نُشِر من مقابلات، وتطرح خطوة أولى نحو فهم الطرائق التي تمّ بها توزيع الأدوار بين الجنسين في صناعة اللؤلؤ، وكيف تغيرت تلك الممارسات في القرن العشرين.

انطوت صناعة اللؤلؤ على توزيع الأدوار بين الذين شاركوا في الغوص على اللؤلؤ مباشرة، والذين بقوا في البَرِّ لتوفير الغذاء للعائلات طوال العام، ومع ذلك فإن الكثير من المصادر يعتمد على أنماط بسيطة لشرح تلك العلاقة. أمّا الرجال فقد اختزلت الحياة فيما كانوا يتعرضون له؛ فبينما يَرِدُ ذكْر روح الوُدِّ في سفينة الغوص، وأهمية الغوص على اللؤلؤ كعلامة على الرجولة، فإنّ دراسته دراسةً جيدة نادرة، وفي الوقت نفسه ليس ثمة إشارة إلى دور النساء البتّة، سوى أنهنّ يودّعْنَ الرجال في بدء رحلة الغوص، أو الترحيب بهم لدى عودتهم منها، لكن صناعة اللؤلؤ اعتمدت على الأعمال التي كان النساء يقمن بها في الواحات في الصيف؛ إذ كنّ يجنيْن التمور، ويحافظن على العلاقات الاجتماعية في أثناء وجود الرجال في البحر، وهكذا قامت صناعة اللؤلؤ على نظام توزيع الأدوار بين الجنسين؛ فإذا كان الرجال هم الذين يغوصون على اللؤلؤ وينتجون الثروة، فقد كان للنساء دور هام. وقد نوقشت تلك المسألة بالنسبة إلى شمال الخليج: في قطر، والبحرين، والكويت، لكنها بُحثت في سياق إمارات الخليج الجنوبية[2] قليلاً. وإذا ما تمّ الكشف عن تلك الجوانب التي أُهملت من قبل فسوف تكون صناعة اللؤلؤ فرصة لمعرفة مدى اعتماد كل من الجنسين على الآخر في جنوب الخليج العربي، وسوف تلقي صناعة اللؤلؤ على ذلك النحو الضوء على التغيرات التي اجتاحت الإمارات في النصف الثاني من القرن العشرين.

لم ينشأ الغوص على اللؤلؤ عن مجتمع جامد، أو عن مجتمع محافظ شديد التمسك بتوزيع معيّن للأدوار الاجتماعية، ومع ذلك نجد كثيراً من الكتب قد أهملت الجوانب الخاصة بتوزيع الأدوار بين الجنسين فيما يتعلق بالغوص على اللؤلؤ، وعجزت عن تحليل الآثار الاجتماعية للغوص على اللؤلؤ؛ فمنذ خمسينيات القرن العشرين اقتصرت الكتب والمقالات التي كتبت عن الغوص على اللؤلؤ في إمارات الخليج الجنوبية على سرد للتاريخ فقط، وجمع التقارير البريطانية الخاصة بالتاريخ الاقتصادي لصناعة اللؤلؤ مقرونة بتفسيرات مبهمة لممارسات الغوص عليه، لكن القليل منها يتخطى حاجز ذلك الغموض، أو يحلل الأدوار الاجتماعية التي كان يتم القيام بها على زوارق الغوص على اللؤلؤ[٣]. أما أقدم الكتب فتطرح السياق الخاص بما اعترى تلك الصناعة من تغيرات في سنوات الاضمحلال في منتصف القرن العشرين، وإن كانت لا تتخطى في تحليلاتها عام ١٩٤٠، على الرغم من استمرار صناعة اللؤلؤ حتى ستينيات القرن العشرين في إمارات الخليج الجنوبية[٤].

ثمة مصدر ثانوي للمعلومات هو المقابلات التي أجريت مع غواصين أو تجار سابقين، ونُشرتْ باللغة العربية. ولسوء الحظ فإن الكتب المنشورة باللغة العربية لم تقدم أيّ تحليل يذكر إلا نادراً، وتطرح المعلومات في هيئة حقائق أزلية، والسرد الذي تقدمه لا يظهر سوى آخر موجات ازدهار صناعة اللؤلؤ في ١٨٧٥–١٩٣٠، وتقتصر على قصص رجال يعرفهم مؤلفو تلك الكتب، أو أجروا مقابلات معهم.[٥] والكثير من تلك الكتب يركز في آليات الحرفة، ويعتمد على الوثائق البريطانية لإضفاء صبغة تاريخية على ما يطرحه من تفسيرات، دون أن يقدم أي قدر يذكر من المعارف المحلية. إنها تطرح بالتفصيل رحلة واحدة، وتعدّها النموذج السائد. وتكمن صعوبة استشراف أثر صناعة اللؤلؤ في مجتمع إمارات الخليج الجنوبية في قلة الأدّلة الملاحية المنشورة،وقلة النواخذة المشهورين(ربابين السفن) ومن القلائل الذين نشروا مذكراتهم سيف مرزوق الشملان في الكويت. وتركز الوثائق والتقارير البريطانية في صناعة اللؤلؤ في الكويت والبحرين حيث كان الوجود البريطاني أكثر كثافة، والعلاقات بين بريطانيا والأسر الحاكمة أشد، وحيث كانت عائلات ربابين السفن والغواصين، والتجار على استعداد لنشر ذكرياتهم، أو منح الباحثين فرصاً للوصول إلى بغيتهم. كان المضمون الاجتماعي لحرفة الغوص على اللؤلؤ ولتجارته أيضاً أكثر تنوعاً في الكويت، والبحرين، وأبوظبي، رغم قلّة الاختلاف في طرائق الغوص عليه. كانت الحياة في البحرين مختلفة تماماً عن الحياة في أبوظبي، أو الشارقة، وموانئ الخليج الجنوبية مختلفة جغرافياً؛ ما مَكَّنَ النساء من الهجرة إلى الواحات الداخلية على أقل تقدير. ويمكن تصور أدوار كل من الجنسين في إمارات الخليج الجنوبية على أنها أدوار ثابتة لا تتغير؛ فالرجال كانوا يصيدون في البر والبحر، ويغوصون على اللؤلؤ أيضاً، على حين كانت النساء يقمن برعاية الأسر ويعتنيْن بالصحة، لكن الجمود الذي ينطوي عليه مثل هذا التصور يزيد من صعوبة البحث الجيد في العلاقات الاجتماعية بين الجنسين، وغالباً ما نُظِرَ إلى تلك الأدوار على أنها ظلت ثابتة حتى اكتشاف الثروة النفطية، وعندئذ ازداد إيقاع التغيير، بل إن تلك التحولات بدأت فعلاً في ثلاثينيات القرن العشرين عقب اضمحلال حرفة الغوص على اللؤلؤ وتجارته، وازدادت وضوحاً في منتصف القرن[٦]، ولم تعد صناعة اللؤلؤ المصدر الرئيس للثروة لمن يعيشون في الساحل بحلول خمسينيات القرن العشرين، وحلّ محلها فرص للتجارة،

والتهريب، وهجرة العمال[٧]. وقد لاحظ روبرت هاي – مسؤوول بريطاني سابق في جنوب الخليج – أن أغلب الغطاسين أصبحوا يفضلون العمل – بحلول عام ١٩٥٩ – في شركات النفط على مهنتهم القديمة التي انطوت على قدر كبير من الصعاب والأخطار؛ ولذلك لم يكن يخرج للغوص على اللؤلؤ سوى مئات قليلة من الزوارق كل عام، وكان غالبيتها من الساحل المتصالح حيث لم تكن أي من شركات النفط قد بدأت الإنتاج[٨] ، أمّا مَنْ آثر الاستمرار في الغوص فقد كان دافعهم هو الحفاظ على التقاليد، والأمل في الثروة، أو زيادة الدخل[٩]. ومن ناحية أخرى لم تكن الزوارق تتجه إلى مغاصات اللؤلؤ في هيئة أساطيل، وثمة حالة واحدة على الأقل سمح فيها للبنات بمرافقة عائلاتهنّ في رحلات الغوص على اللؤلؤ[١٠]. وقد ظلّ حاكم أبوظبي يجبي ضريبة «القلاطة» حتى ستينيات القرن العشرين رغم تغيّر الممارسات، ما يوضّح أن عدداً من الناس ظلّ يمارس الغوص على اللؤلؤ[١١].

الرجال والغوص على اللؤلؤ :

تتضمن التقارير الخاصة بصناعة اللؤلؤ في أواخر القرن التاسع عشر بيانات عن الوظائف المتضمنة في تلك الصناعة، ونظام تمويل رحلات الغوص على اللؤلؤ، وأساليب استخراجه، والأحوال الصعبة للعاملين في تلك المهنة الشاقة[١٢]، لكن تلك المصادر نادراً ما تطرقت إلى حياة العاملين في زوارق الغوص على اللؤلؤ سوى الإشارة إلى معاناتهم والأخطار التي كانوا يواجهونها. ومما يدل على أن موسم الغوص على اللؤلؤ كان فترة عصيبة للرجال الشعور بالوحدة والعزلة، الذي كان ينتاب الغواص حين يكون وحيداً في قاع البحر، وكذا للزورق عندما يكون وحيداً في عُرْضه. كان الرجال يعانون، وتزداد معاناتهم عندما يتحملها كل منهم بمفرده دون صاحب أو رفيق. كان الغوص على اللؤلؤ نشاطاً مجتمعياً حتى أربعينيات القرن العشرين في إمارات جنوب الخليج، وقد كوّن الرجال على متن زوارق الغوص على اللؤلؤ مجتمعات صغيرة؛ إذ كانت تلك الزوارق تحمل عادة أفراداً من أسرة واحدة؛ ما كان يتيح قدراً من الحياة الاجتماعية والألفة والاتصال حين تكون الزوارق متمركزة عند مغاصات اللؤلؤ. وهكذا فإن البحث الذي نحن بصدده يطرح نظرة على الغوص على اللؤلؤ تبتعد به عن التقارير الجامدة ذات البعدين، التي تركز في الأدوات والممارسات.

كان العمل ضمن طاقم سفينة للغوص– قبل انهيار الغوص على اللؤلؤ عام ١٩٣٠– مدخلاً للرجولة ينطوي – فيما ينطوي – على مبدأ التدرج الوظيفي، وصولاً إلى وظيفة غواص بكل ما تحمله من فرص، أو وظيفة نوخذة بكل ما يحيط بها من شهرة ومجد. لقد كان الغوص على اللؤلؤ مهنة هرمية التنظيم، وكان الزورق الواحد يتواصل لعدة أجيال، وكان يتطلب دوماً شباناً، وحتى صغاراً في سن السابعة فأعلى للعمل، ثم للغوص، ويواصلون ذلك حتى يصبحوا غير قادرين عليه. وهكذا تحددت معالم الطريق أمامهم لكي يصبحوا غواصين. وكان الصبية (الرضافة) يلتحقون بالعمل مع السيوب (الذين كانوا ينزلون الغواصين إلى قاع البحر ويرفعونهم). وهكذا فإن ذلك التنظيم الهرمي يوحي بأن الغوص على اللؤلؤ كان يساعد الصبية على التحول من الطفولة إلى الرشد. ويقول خميس راشد زعل الرميثي موضحاً: إن فرص الغواصين في الزواج كانت كبيرة لمكانتهم الاجتماعية، وقدرتهم على الكسب[١٣]. وتذهب موزة الحمر إلى أبعد من ذلك؛ إذ ترى أن

التنظيم الهرمي على متن زورق الغوص على اللؤلؤ قد امتد أثره إلى البحر واليابسة إلى الحد الذي جعل فتاة تتحدى أباها طالبة السماح لها بالزواج بغواص على اللؤلؤ، وكانت حجتها أن حرفة الغوص – وإن انطوت على صعاب وأخطار – حرفة نبيلة في نظرها، وأفضل من أن يظل الشاب بدوياً في الصحراء[١٤]. وكان للغواصين نصيب الأسد من عوائد الغوص على اللؤلؤ بعد سداد نصيب كل من مالك الزورق، وربّانه، ولعل ذلك مما يساعد على تفسير تطلّع الرجال إلى حرفة الغوص[١٥]. وهذه القصة تبيّن – رغم ما في صحتها من شك – مدى احترام المجتمع للغواصين؛ ما جعل الشبان يطمحون إلى دخول تلك الحرفة.

وثمة وظائف أخرى كانت تمارس على سطح الزورق، إضافة إلى الغواصين ومساعديهم، والعمال الذين كانوا يفتحون المحار؛ الأمر الذي يدعم فكرة المجتمع المصغر عن تلك الزوارق. التباب (صبي في السابعة من العمر عامة وحتى سن الثانية عشرة) [١٦] هو الذي يحضر الماء أو الشيشة («القدو» بلهجة أهل الخليج) للغواصين، وإن كان اللهو على سطح السفينة هو أغلب ما يقوم به [١٧]، وكان هؤلاء الصبية يذكرون الرجال الأكبرين سناً بأسباب الغوص، كما كانوا يشيعون البهجة والمرح في حرفة شديدة الصعوبة [١٨].

وبالمثل كان هناك«النّهام» أو المغني الذي كان إنشاده يساعد على الحفاظ على قوة الدفع، والرجال يجدفون أو يغوصون، ويرفّه في المساء.بما كان ينشده من أغاني وأشعار تجعل الرجال ينسون همومهم وسوء أحوالهم، وأوجاعهم وآلامهم [١٩].

لقد كان الرجال دوماً يشعرون بالحنين إلى العودة إلى البر، وغالباً ما كان ذلك الحنين يختزل في الرغبة في العودة إلى الزوجات والإناث من أفراد الأسرة، وهكذا تزاوجت الرغبة في الغوص بالرغبة في البقاء مع الأسرة[٢٠] وغالباً ما كانت أغاني «النّهام» تتركز في الحياة في البحر، وتتيح للرجال قدراً من الارتياح، وكان الغرض من الأغاني – عامة – مساعدة الرجال على التغلب على الإجهاد، وساعات العمل الطويلة، وما يحملونه في صدروهم من هموم وتعب [٢١]؛ ففي أغنية لخلفان المهيري نجد الغواص يناجي أم عنبر – من الجن – كي تحميه وهو في البحر، ولكي تحمي أيضاً محبوبته في البر، وتلمّ شملهما في نهاية الموسم[٢٢].

كانت تلك الأغاني وسيلة يتحملون بها الشوق والحنين إلى الأسرة والوطن بالصبر والشجاعة رغم أنها كانت في المعاناة، وكانت تصور دور الغياب أيضاً عن الأسرة في تنمية روح الرجولة على ظهر سفينة الغوص؛ فالغوص كان يهيء الفرص للرجال لكي يتعلموا كيف يكونون رجالاً، أو كيف يدعم كل منهم الآخر في إطار بيئة اجتماعية؛ فقد كانوا يتعاونون لشراء أطعمة خاصة مثل الطحين، والأرز، والشاي، والسكر، ويتقاسمون تلك السلع في البر أيضاً [٢٣]وكان على متن السفينة الواحدة ١٠–٣٠ رجلاً غالباً، ونادراً ما كانت تلك السفن تسع الطاقم كاملاً [٢٤]. ويذكر محمد بن خليفة بن ثاني المهيري، وسيف بن غانم السويدي أنهما كانا ينامان فوق الأصداف التي جاءا بها في وقت سابق من اليوم؛ لعدم وجود مساحة كافية للنوم وخزن الأصداف معاً [٢٥]. وقد أجبرت ترتيبات النوم تلك الرجال على التفاوض والتعاون بطرائق ربما كانت غير ضرورية في البر، ومع ذلك ليس العمال وحدهم هم الذين يتّسمون برجولة مثالية؛ فالحديث عن النوخذة يبيّن ملامح من التواصل الاجتماعي الذي انطوت عليه حرفة الغوص على اللؤلؤ.

كان النوخذة يوصفون – غالباً – بأنهم متسلطون أو طيبون، ويرجع الفضل في ذلك إلى كيفية معاملتهم لمرؤوسيهم. وتتيح تلك الأوصاف نبذة من الجانب الأخلاقي للرجولة. كان النوخذة المتميزون طيبين وعطوفين، وكانوا يشحذون ولاء رجالهم وإخلاصهم، و لم يكونوا متسلطين يدفعون رجالهم دفعاً بدون فترات للراحة [٢٦] على الرغم مما كانوا يعانونه من جوع، وجفاف، وأمراض[٢٧].

لقد عَزَّزَ الغوص على اللؤلؤ فكرة أن على الرجال السعي حثيثاً ليكون ولاءهم لعملهم، وأن يعملوا بجدّ واجتهاد حتى يكسبوا الاحترام؛ فتلك هي السمات التي تظهر المعنى الحقيقي للرجولة، وعلى الرجال أن يتّسموا بالعدل، وأن يعيلوا ذويهم، وأن يكونوا على استعداد للعمل واكتساب المعارف اللازمة لإتقان أعمالهم[٢٨]؛ ولذا لم يكن الغوص على اللؤلؤ تعلّم التجاوب بشكل مستقل مع الغياب الطويل عن الوطن والأهل فقط؛ بل تعلّم ذلك بشكل مجتمعي.

وبالإضافة إلى الروح المجتمعية على متن الزورق الواحد لم تكن الزوارق تخرج إلى المغاصات منفردة إلا نادراً؛ إذ كانت تخرج من الموانئ في أساطيل، وكان يتولى قيادة الأسطول – عادة – ربان يعرف بـ «سردال الغوص»، ولذلك كان في المغاصات أكثر من سردال، وكان مشهوداً لهم بأنهم أكثر الملاحين علماً، وأعلى الربابين قدرة في المنطقة [٢٩]. ويعني السفر في قوافل على هذا النحو أن للرجال أن يلتقوا ليلاً للسمر، أو لتهنئة من شاء حظه أن يعثر على لؤلؤة ذات قيمة خاصة[٣٠]؛ ما كان يقلل من الشعور بالعزلة. وكان شعور الغواصين بالعزلة يقلّ في مغاصات اللؤلؤ بمداومة الاتصال بينهم في قاع البحر، ويتاح لهم قدر من الحماية من القراصنة الذين كانوا يسعون لسرقة اللآلئ بدلاً من الغوص عليها، وللحماية من مُحصلي الديون أيضاً، الذين استخدموا تجارة اللؤلؤ تكئة لاسترداد الديون المعلقة [٣١]. وتوحي تلك الممارسة بأنه كان من الممكن مشاهدة رجل واحد في قارب واحد في مغاصات اللؤلؤ. كان بين الزوارق، وفي المغاصات اتصال ناجح، وتغيرت صناعة اللؤلؤ بحلول خمسينيات القرن العشرين، و لم تعد اللآلئ سلعة مربحة؛ لذا لم يكن للحماية المجتمعية لمغاصات اللؤلؤ حاجة كبيرة. وتوقفت دبي عن إرسال أسطول للغوص على اللؤلؤ [٣٢] بحلول ١٩٤٩.

حدث ذلك التغيير عقب الانهيار الاقتصادي العالمي عام ١٩٣٠، و لم تكن أرباح الغوص على اللؤلؤ كبيرة كما كانت، رغم مواصلة الغوص عليه جنوب الخليج في ستينيات القرن العشرين. ويذكر سيف أحمد الغرير أنه دفع في ثلاثينيات القرن العشرين سبعة آلاف روبية في لؤلؤة كان يمكن أن تباع قبل ذلك بجيليْن بمئة ألف روبية[٣٣]. في الواقع انخفض هامش الربح من تجارة اللآلئ انخفاضاً متواصلاً حتى إن الثمن الذي كان التجار البحرانيون يدفعونه لشرائها بحلول عام ١٩٣١ صار أقل بمقدار ٦٥٪ من ذلك الذي كانوا يشترونها به قبل ذلك بثلاث سنوات فقط[٣٤]. وقد أدى ذلك الانهيار الكبير إلى حالة من الفقر الشديد؛ إذ اعتمد كثير من الغواصين على القروض والمدفوعات المسبقة (العرابين) لسدّ حاجاتهم طوال العام.

ويوضح بلال خميس بخبرته الشخصية التغيرات التي حدثت بعد ثلاثينيات القرن العشرين. كان خميس يعمل من الجميرة غواصاً في شبابه في أربعينيات القرن الماضي وخمسينياته، وكان أفراد طاقم سفينة الغوص يحصلون على ١٥–٢٠روبية سلفاً للإنفاق على أسرهم في موسم الغوص الصيفي، وكانت الآمال تعقد

على الحصول على دخل يكفي سداد ديونهم وإعالة أسرهم بقية العام. ومن تجربة خميس فإن الرجال كانوا يحصلون على ٣٠–٤٠ روبية في الموسم المتميز نادراً[٣٥]. وتُعدّ ذكريات خميس تلك موضوعاً شائعاً في أي نقاش في الديون والقروض الخاصة بالغوص على اللؤلؤ، ذلك المال الذي كانت تعيش عليه عائلات أفراد الأطقم في موسم الغوص الصيفي. وتلقي ذكريات خميس ضوءاً كافياً على حقيقة أساسية من حقائق الغوص على اللؤلؤ، وهي عدم المساواة رغم أنها تعكس فترة اضمحلال الغوص على اللؤلؤ في الخليج؛ فالذين كانوا يقومون بأشقّ الأعمال كانوا يحصلون على أقلّ العوائد؛ فقد تعيّن أولاً سداد مستحقات أصحاب السفن، والتجار، والحكام، ثم يأتي أفراد طاقم السفينة الذين يقتسمون ما تبقى بينهم.

أدت تلك التغييرات إلى تسارع في التوجهات التي ظهرت بالفعل في طول الساحل؛ فقد تلاشت ظاهرة الخروج للغوص على اللؤلؤ في قوافل للطلب على الأيدي العاملة في أنشطة أخرى تُدرُّ عائداً أكبر، مثل تجارة المسافات الطويلة التي ملأت الفراغ الاقتصادي الذي خلفه اضمحلال الغوص على اللؤلؤ. ويذكر سيف أحمد الغرير أن ممّا أغرى بالتخلي عن الغوص على اللؤلؤ حقيقة أن تجار اللؤلؤ كانوا يقتسمون أرباحهم مع أطقم السفن، على حين أن أرباح التجارة تذهب كلها إلى صاحب السفينة أو نواخذتها، ويحصل أفراد الطاقم على رواتب ثابتة[٣٦]. وهكذا لم تكن التجارة أكثر ربحاً فقط لأصحاب السفن والنواخذة؛ بل كانت أكثر أماناً أيضاً، وحررت النواخذة من الاعتماد على السوق العالمية، والاتجار في سلعة واحدة، ومكنتهم من تحقيق أرباح أقلّ وإن كانت أكثر انتظاماً؛ وذلك بنقل أنواع مختلفة من البضائع في إطار نظام المحيط الهندي. ويذكر سيف السويدي كيف عمل غواصاً سبع سنوات على الأقل، ثم دخل هو وإخوته في مجال الأعمال، وكونوا ثروة تكفي شراء سفينة، وازدادت ثروتهم من ٧٠٠–٨٠٠ درهم إلى ١٠٠,٠٠٠ درهم بالتجارة[٣٧].

واظبت بعض العائلات على الغوص على اللؤلؤ والاتجار فيه على الرغم من تدهور الأرباح. ويذكر عبدالله الرميثي بدايات حياته كتاجر للؤلؤ – وكان قد بلغ ستاً وستين سنة وقت إجراء المقابلة معه حوالي عام ١٩٥٠ – فيقول إنه عمل مع علي بن فردان – وهو تاجر شهير– وكوّنا معاً شركة [٣٨]. ولعل أهم ملامح التغيير الذي اعترى تجارة اللؤلؤ وصناعته هو الذي أتانا من سيدة، هي أم عبدالله، أو شمسة بنت سلطان المرّي، التي بدأت الغوص في أربعينيات القرن الماضي مع والدها وأخيها، وواصلت الغوص حتى بلغت العشرين من عمرها[٣٩]. وكانت أمها قد تُوفيت تاركة إيّاها في سن مبكرة، وتولى أبوها تربيتها، وأخذها معه في رحلات الغوص على اللؤلؤ؛ إذ كانت ترفع أخاها، وفي يوم من الأيام شعرت بالإجهاد من ذلك العمل، وقررت الغوص[٤٠]، وفي أول غوصة لها وجدت دانة – لؤلؤة– رائعة باعتها لأحمد بن خليفة العتيبة، وهو من مشاهير تجار اللؤلؤ في أبوظبي. وكانت أم عبدالله تدرك الطابع غير العادي للقصة التي ترويها، فذكرت أن غالبية النساء اكتفين بجمع المحار على الشاطئ؛ إذ كان من المستحيل أن تشارك فتاة أو امرأة في الغوص على اللؤلؤ. ولما زار رجل سفينة أبيها سأل عن ذلك «الصبي» الذي يرتدي زيّ فتاة، وقال: لماذا يغوص مرتدياً ملابس فتاة؟ فأوضح والدها أن «الصبي» فقد أمه مؤخراً، ويُعزّي نفسه بارتداء ملابسها!!. لقد كان من المستحيل لذلك الزائر أن يدرك أن الغواص الذي يشاهده فتاة؛ لذا ارتأى

أبوها أن من المناسب مواصلة المهزلة بدلاً من الاعتراف بالحقيقة[٤١].

تبين تلك القصة أن الغوص على اللؤلؤ كان يعدّ –بقوة– حرفة الرجال فقط، إلا إذا دعت الضرورة القصوى إلى غير ذلك، مثل الفقر الذي ساد في منتصف القرن العشرين. لقد كان الغوص على اللؤلؤ حرفة للرجال كما أوضح أحد الرجال؛ لأن السفن المستخدمة لم يكن بها أماكن خاصة بالنساء لتغيير الملابس، والنوم، والطعام[٤٢]. ولاشك أن والد شمسة كان يعاني فقراً شديداً، و لم يشعر بالارتياح لفكرة الهجرة إلى شمال الخليج للعمل في حقول النفط، أو الوظائف الخدمية، وربما كان ذلك لارتباطه والتزاماته العائلية. لقد كان بوسعه أن يلجأ إلى أقاربه أو جيرانه لمساعدته على رعاية ابنته، لكنه لم يشأ ذلك، واختار أن يصطحبها معه، وهو إذ فعل ذلك درّبها على صيد السمك، وعلى الغوص على اللؤلؤ[٤٣]؛ ولذا فإن قرار الرجل أخذ ابنته في رحلات الغوص يوضح أن النظام الاجتماعي الذي ساد قبل انهيار صناعة اللؤلؤ بدأ يتهاوى فعلاً.

لم يقتصر الدور المباشر للنساء في الغوص على اللؤلؤ على المشاركة العشوائية؛ فقد كنّ يساعدن الرجال على التجهيز قبل الرحيل، والاستعداد لعودتهم؛ فقد كان الغوص على اللؤلؤ عملاً شديد القسوة، وفي بعض المدن كان الرجال جميعهم يذهبون إلى مغاصات اللؤلؤ[٤٤]، ومن المستحيل أن نتصور أن تتم مثل تلك التعبئة دون مساعدة من النساء. وفي أبوظبي كانت النساء يساعدْن على تموين سفن الغوص على اللؤلؤ بالماء. وحسب ما ذكرته أم سيف كانت النساء يساعدْن الرجال على تجهيز السفن للإبحار، وقد كانت عضواً في جمعية تعاونية لجلب الماء وتوزيعه في أبوظبي، وكانت جمعية من القبائل والعائلات، وكانت تزود سفن الغوص على اللؤلؤ بالماء قبل إبحارها مقابل روبية واحدة لكل أربع سفن [٤٥]. ولقد نسقت النساء عملهنّ هذا بحفر الآبار، والبحث عن مواقع جديدة لها خارج المدن وصولاً إلى الماء العذب، وكانت أخريات يأخذن الماء، ويحملنه إلى الخزانات الفارغة على متن سفن الغوص على اللؤلؤ[٤٦]، وكان الحفر عملية خطرة. وتذكر أم سيف أن البئر انهارت في إحدى تلك العمليات، وحُشِرت إحدى النساء تحت أنقاضه[٤٧]. وتواصل أم سيف وصفها لذلك الدور قائلة: كان ٤٠٠ زورق تصطف على شواطئ المدينة بقرب البطين والقطاعية في بعض الأيام، وبعضها كان يُزوّد بنحو ٣٠٠ – ٥٠٠ برميل ماء من مختلف الأحجام[٤٨]. وتشير غالبية الروايات إلى أن النواخذة وأطقم السفن كانوا مسؤولين عن تزويد سفنهم بالماء وغيره من الإمدادات [٤٩].

وتزود رواية أم سيف القراء بنبذة من التعبئة العامة التي كانت تتم من أجل صناعة اللؤلؤ في أبوظبي، ومع ذلك لم ترد أي إشارة في الأدبيات إلى دور المرأة، سوى مقالة لعبدالله عبدالرحمن في مجلة «تراث» تؤكد أن النساء لهنّ دور في صناعة اللؤلؤ، لكنه مع ذلك أهمل ذلك الدور في بقية المقالة.

وهناك عمل لحسن قايد عام (١٩٨٠) يقرّ بأن النساء كنّ يحملن الماء إلى السفن، لكنه لم يذهب إلى أبعد من تلك النقطة. [٥٠] وقد قامت النساء بدور هام في حثّ الرجال على العمل وفي توفير الحاجات الأساسية للأسرة من المواد الغذائية للعام القادم على الرغم من عدم مشاركتهنّ مباشرة في الغوص على اللؤلؤ، وكما لاحظنا آنفاً فإن الشوق إلى النساء كان من الملامح الكبرى لحياة الرجال وهم على متن السفن، فقد أصبحْنَ رمزاً حياً للبيت والسعادة، ومع ذلك صوّرتهن الأغاني والقصائد بأنهن عاطلات، يجلسن ويشتقْن إلى عودة الرجال

دون أن يفعلن شيئاً، وذلك وصف يخالف واقع حياتهنّ اليومية.

وتطرح النساء حياتهن في الماضي بمثل ما يفعل الرجال؛ فقد كانت الحياة صعبة، والعمل شاقاً، ومع ذلك فقد تحمّلْنَهما بشجاعة واقتدار؛ فالنساء يُصَوِّرن أنفسهنّ شخصيات قوية قادرة على تربية الأطفال، ورعي الحيوانات، وإدارة المنازل دون نقاش أو تعليق[٥١]. وفي المقابلات التي تمتّ معهن طرحْنَ أنفسهن كنساء خارقات قادرات على توفير متطلبات الحياة في بيئة صعبة؛ إذ تقول إحداهن: لم نكن ضعفاءَ البَتّة في الأيام الخالية[٥٢]. والفارق بين صورة «المرأة العاطلة»، وصورة «المرأة الخارقة» هو – في الحقيقة – السلوك المطلوب للبقاء؛ وذلك وفق ما ذكرته يسرا صوفان، وهي من رواد تاريخ المرأة في الإمارات العربية المتحدة[٥٣]؛ فبينما يتأهب الرجال للخروج إلى الغوص على اللؤلؤ في الصيف تحتشد النساء والأطفال، وكبار السن والعجزة على الشاطئ لوداعهم، ثم يبدؤون رحلة إلى الداخل، إلى الواحات أو الجبال؛ ففي الواحات كانت النساء ينسقْنَ جني التمور مع أقاربهم من البدو الذين كانوا يهاجرون إلى مناطق قريبة من الواحات في الصيف[٥٤]، لكن القليل جداً من عادات النساء في الصيف تمّ توثيقه؛ لأنه لم يكن للمسؤولين البريطانيين أيّ نفوذ في المنطقة أو اهتمام مباشر بها حتى أوائل القرن العشرين، وأن القليل من النساء اعتدن مناقشة أمور حياتهن على ذلك النحو. وهكذا فقد اختُزل دور المرأة في عهد ما قبل النفط في الأعمال المنزلية الشاقة.

أوضحت أم سالم – في مقابلة معها– أن النساء كنّ يعملْنَ بجدّ واجتهاد قبل أن تغير عوائد النفط حياتهنّ. وهذه إحدى النسوة الخارقات قد أوضحت أن دورها كامرأة تضمّن إيقاظ أفراد المنزل لأداء صلاة الفجر، وإعداد طعام الإفطار، ورعاية المواشي وإطعامها، وفلاحة حديقة العائلة، وضمان الأعلاف للحيوانات، ورفع الماء من البئر، وجمع الحطب، وطهي الطعام، ورعاية الأطفال وتعليمهم إن لزم الأمر، والعمل كشريك جيد للزوج[٥٥]. تلك كانت واجباتها في وجود الزوج؛ ولذا فإن غيابه لم ينقص منها شيئاً. وشأن حمدة بنت حميد الهاملي (أم سيف) وهي امرأة من أبوظبي كشأن أم سالم؛ فقد أوضحت أن اليوم كان يبدأ لغالبية النساء – وهي منهنّ– قبل صلاة الفجر بقليل، ويشمل: جلْب الماء، وطهي الطعام، وتنظيف المنزل وترتيبه إلى أن ترقد مجهدة على السرير[٥٦]. وكانت النساء يحوّلْنَ التمور الطازجة (الرطب) إلى تمور محفوظة، أو إلى شراب (دبس) [٥٧] في الصيف حين يكون غالبية الرجال قد خرجوا (للغوص على اللؤلؤ).

وقد شرحت ماما خلود في أثناء مناقشة مع جين بريستول رايس مبدأ الاكتفاء الذاتي لدى النساء فقالت: إن الرجال كانوا يتركوننا ويذهبون للغوص على اللؤلؤ مع موسم نضج التمور حين يحين جنيها؛ ولذا كنّا نجني التمور كل عام... واعتدنا إعطاء البدو جزءاً من المحصول؛ فهم أقاربنا، وكانوا يساعدوننا، وكانوا يتناولون الكثير من التمور الطازجة أثناء الجني. وعملت النساء جميعاً ومعاً في فرز المحصول، وتجفيفه وغَلْي ما تبقى منه[٥٨]. وتؤكد ماما خلود في إطار ذلك السرد أن النساء لم يعملن فحسب، بل كنّ يتعاوَنَّ، ويساعدن أقاربهنّ الفقراء، وأن عمل النساء لم يكن بقصد مساعدة أنفسهن فقط، بل مساعدة المجتمع والأقارب الأبعدين أيضاً.

وما إن ينتهي موسم الحصاد حتى تنتظر النساء ظهور نجم «سهيل» للإعداد لرحلة عودة الرجال إلى الساحل واستقبالهم. وكنّ يُعْدِدْن الطعام للرجال العائدين وهم في طريق العودة؛ لأن رحلة العودة قد تطول، بل قد تستغرق ضعف زمن رحلة الذهاب لارتفاع درجة الحرارة، والحاجة إلى الطهي [٥٩]، وقد يؤثر مثل ذلك الإجهاد في الحوامل، وثمة روايات عن نساء وضعن أثناء رحلة عودة الرجال، وفي تلك الحالة يتخلف بعض النسوة للبقاء معهن ومساعدتهن أثناء المخاض، ثم وضعهنّ على ظهور الإبل والانطلاق للانضمام إلى المجموعة [٦٠]. وتسهم تلك المشقة في رسم الصورة المثلى للمرأة المكافحة، التي ذكرها الكثير من النساء في المقابلات التي أجريت معهنّ.

الخلاصة:

انطوت مقتضيات صناعة اللؤلؤ –بما في ذلك الغياب الطويل للرجال، والعمل الشاق، ومتطلبات الإنتاج الزراعي– على توزيع الأدوار بين الجنسين بما يندرج تحت التقسيم المبسط للعمل في موسم الغوص الصيفي؛ ففي غيبة الرجال كانت النساء يوسعن جدول أعمالهن المنزلية أحياناً.

لقد تضمنت مساهمة النساء في صناعة اللؤلؤ أكثر من مجرد الشوق إلى رجالهنّ، وإن كانت الفُرْقة التي تدوم ٣–٤ أشهر تولّد شعوراً قوياً بالوحدة والشوق. وقد كان دور النساء في صناعة اللؤلؤ هو رعاية البيت، وتوفير الحاجات الغذائية للأسرة للعام القادم. وقد عُرّفت كلمة «البيت» هذه تعريفاً واسعاً اعتماداً على وضع النسوة ذوات الصلة بالموضوع، وفترة الحديث عنها؛ فقد تمتدّ لتعني الإشراف على العمال في موسم جني التمور، والفِلاحة، وتربية المواشي، أو القيام بتلك الأنشطة بأنفسهنّ. وكان ذلك كله إضافة إلى رعاية الأطفال وكبار السن. وهكذا كان للمرأة دور كبير في عهد ما قبل المجتمع الإماراتي الاتحادي، وازداد بغياب الرجال فترات طويلة.

لقد كانت صناعة اللؤلؤ أساس الاقتصاد في جنوب الخليج في فترة ١٨٥٠– ١٩٣٠، وكان الموسم الأكبر هو أشهر الصيف. ولم يكن ممكناً للرجال أن يغيبوا طويلاً للغوص على اللؤلؤ بدون مساعدة النساء على الأرض. والواقع أن دور المرأة في الإمارات أكثر مرونة مما تم اكتشافه، وكانت التقلبات أكبر وأعظم في زمن التحول الاقتصادي.

ولابد من نظرة أكثر اتساعاً وشمولاً إلى صناعة اللؤلؤ، تبين العلاقات بين البحر والواحة لكي يتسنى فهم أدوار كل من الجنسين في تلك الصناعة؛ وهذا وإن كان أمراً طبيعياً لغالبية الإماراتيين فإنه صعب للباحثين.

إنّ أي مناقشة في صناعة اللؤلؤ لابد أن تذهب إلى ما هو أبعد من ذكريات الماضي ودور الرجال فيه. وهذا البحث خطوة أولى هامة تبرهن على قيمة المقابلات المنشورة في إطلاق الجدل في العلاقات الاجتماعية في إمارات الخليج الجنوبية. وهو ليس بحثاً قاطعاً، وثمة الكثير ينبغي عمله حتى نبدأ فهم الحقائق المتعلقة بالغوص على اللؤلؤ، والعلاقات بين البر والبحر في أشهر الصيف. وعلى الباحثين البدء بجمع ذكريات الرجال والنساء، وتوجيه الأسئلة لهم في أمور تذهب إلى ما هو أبعد من وصف حياتهم آنذاك بأنها كانت شاقة.

تم التركيز بشدة في دور الرجال كغواصين على اللؤلؤ والتجارة فيه، وفي المقابل تندر الإشارة إلى حياتهم الاجتماعية. ولقد خَبَرَ كل فرد الماضي بشكل مختلف، ويمكن طرح سردٍ يحقق المزيد من الرضى للجيل الحالي بتنسيق تلك الخبرات، وبه يتمكنون من درء الخوف الدائم من فقدان الهوية الوطنية. ولابد من القيام بمزيد من العمل لتسجيل ذكريات الإماراتيين المُعمَّرين، وإن شاب قصصهم قدْر من اللامعقول؛ فلما يسردونه قيمة كبرى، ويمكن أن يساعد على نقل الماضي إلى الأجيال الجديدة؛ فتلك أجيال قد تراه ماضياً جامداً، بل وغريباً، وعلى عائلات التجار، والغواصين، ونواخذة السفن – إضافة إلى ذلك– المشاركة في ماضيهم وإن ترتّب على ذلك بيان أن قوتهم وثروتهم ووضعهم من نتاج الاتحاد، والفرص التي هيأتها لهم الدولة. ولابد من أن يكون لدى النساء أيضاً الرغبة في ضمان رفاهية عائلاتهن، وسوف يساعد ذلك على تعزيز المعرفة بالماضي، وضمان تمثيل كافة الإماراتيين في سجله.

الهوامش:

1. Jane Bristol-Rhys, Emirati Women: Generations of Change (New York: Columbia University Press, 2010), 61.
2. A. MontignyLa légende de May et Ghilân, mythe d'origine de la pêche des perles?," Techniques et culture, 43-44(2004): 159-65; Saif Marzooq Al-Shamlan, Pearling in the Kuwati Gulf: A Kuwaiti Memoir. transl. Peter Clark, (London: Centre for Arab Studies, 2000); Dionisius Agius, In the Wake of the Dhow: The Arabian Gulf and Oman, (Reading, UK: Ithaca Press, 2002); Clive Holes, "The debate of pearl-diving and oil-wells: a poetic commentary on socio-economic change in the Gulf of the 1930s," Arabic and Middle East Literature, 1, no. 1(1998): 87-112
3. Heard-Bey, 182-190, Donald Hawley, The Trucial States, (London: George Allen & Unwin Ltd, 1970), 134-144, 195-197, Christopher Davidson, The United Arab Emirates: A Study of Survival, (London: Lynne Reinner Publishers, Inc., 2005), 6; Jayanti Maitra and Afra al-Hajji, Qasr al Hosn: The History of the Rulers of Abu Dhabi 1793-1966, (Abu Dhabi: Centre for Documentation and Research, 2001).

٤. عبدالله عبدالرحمن، الإمارات في ذاكرة أبنائها. جمعة خليفة أحمد بن ثالث الحميري، دولة الإمارات العربية المتحدة: رجال الغوص واللؤلؤ (دبي، جمعية الإمارات للغوص، ٢٠٠٩. حمدي نصر، الغوص في أعماق الغيص: سيف السويدي ورحلة عمر من نهيم إلى راعي محمل، مجلة «تراث» يناير ٢٠٠٠، على سبيل المثال تتضمن تصريحات حصرية أو مقابلات تم تسجيلها فحسب.

٥. علي إبراهيم الدرورة، ملامح من تاريخ اللؤلؤ في الخليج العربي، العين، مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٢. ماجد كمال مراد، محمد خليفة العامري، الغوص في دولة الإمارات العربية المتحدة (أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، لجنة التراث والتاريخ، ١٩٩٨).

6. Maha Kasim Katib, "Beyond the Mysterious and Exotic: Women of the Emirates (and I) Assess their Lives and Society" (Ph.D. Dissertation, Brown University, 1994); Suaad Zayed Al-Oraimi, "Gender and Development: The Role of Women in the Formal Economic and Political Spheres n the United Arab Emirates" (Ph.D. Dissertation, American University, 2004).
7. Julia Wheeler and Paul Thuysbaert, Telling Tales: An Oral History of Dubai, (London: Explorer Publishing, 2006), 58, 70 relays stories of men who moved to the northern Gulf to work. The Persian Gulf Administration Reports and J.G. Lorimer's Gazetteer provide an account of the volatility of the pearl trade, as does Robert Carter's "The History and Prehistory of Pearling in the Persian Gulf" Journal of the Economic and Social History of the Orient 48 (2005): 139-209 as well as his book, Sea of Pearls: Seven Thousand Years of the Industry that Shaped the Gulf, (London: Arabian Publishing Ltd, 2012); "Administration Report for Kuwait for the Year 1933," in Persian Gulf Administration Reports 1873-1947 Volume IX: 1931-1944, (Gerrard's Cross: Archive Editions, 1986), 62; Frauke Heard-Bey, From Trucial States to United Arab Emirates: A Society in Transition, (London: Longman, 1996), 219.
8. Rupert Hay, The Persian Gulf States, (Washington, D.C.: The Middle East Institute, 1959),

٩. على سبيل المثال: يذكر الشيخ خالد بن محمد القاسمي أنه كان يجلب كتبه المدرسية في منتصف القرن في أثناء رحلاته التجارية، على حين قضى الشيخ عبدالله بن محمد بن يوسف الشيبة سبع سنوات في قطر للدراسة، لكنه أكد أنه كان أعد نفسه لذلك في أثناء رحلاته التجارية الطويلة مع أسرته. عبدالله عبد الرحمن، الإمارات في ذاكرة أبنائها، دبي، ندوة الثقافة والعلوم، ١٩٩٨ ص ١٠٧، ١١٢

١٠. حمدي نصر، دانة: في زمان اللؤلؤ الصناعي – شمسة... غاصت لصيد اللؤلؤ في شبابها وتصيد السمك في سن السبعين «مجلة تراث، العدد ٦٧، ٢٠٠٤، ١٣

11. Edward Henderson, This Strange and Eventful History: Memoirs of Earlier Days in the UAE and Oman, (London: Quartet Books, 1988), 17-18; Residency Agent, Sharjah to Political Agent, Bahrain, 24 Feb. 1937, British National Archives, FO 1016/238, 26.
12. H. Whitelock, "Memoirs. Analyses. Annual Report for 1835-36. I. An Account of Arabs who Inhabit the Coast between Ras-El-Kheimah and Abothubee in the Gulf of Persia, generally

called the Pirate Coast" in Survey of the Shores and Islands of the Persian Gulf 1820-1829 prepared for publication by Andrew S. Cook. (London: Archive Editions, 1990), 325-347; E.L. Durand, "Appendix A: Notes on the Pearl Fisheries of the Persian Gulf" 27-42 and Lewis Pelly "Remarks on the Pearl Oyster Beds in the Persian Gulf" 16 Feb. 1866, 7-10 in Records of the Persian Gulf Pearl Fisheries 1857-1962 Volume 1: 1857-1914 Anita L.P. Burdett ed., (Gerrard's Cross: Archive Editions, 1995); E. Mockler, "Note on the Weights and Measures employed in the Pearl Trade of the Gulf" in "Administration Report of the Persian Gulf Political Residency and Muscat Political Agency for 1885-1886," in Persian Gulf Administration Reports 1873-1947 Volume II: 1879-1883, (Gerrard's Cross: Archive Editions, 1986), 110-116.

١٣. عبدالله بني عيسى، ذاكرة اللؤلؤ، حكايات من أيام الغوص والخطر، مجلة تراث، ديسمبر ١٩٩٨، ص ٤١

١٤. موزة الحمر، من آداب الغوص بمنطقة الخليج العربي الشارقة، نادي المنتزه للفتيات، ص ١٩، ٢٤

١٥. Durand, 63-65; Heard-Bey, 208-210, 219; Lorimer, 2232-2233 نجيب عبدالله الشامسي، اقتصاد الإمارات قبل ١٩٧١، أبوظبي: وزارة الإعلام والثقافة، ١٩٩٥، ص ٩١، حمد بن خليفة بوشهاب الغوص.. شهران ٣–٥، مجلة تراث، فبراير ٢٠٠١، ١٤، عبدالله عبدالرحمن، رحلة الغوص على اللؤلؤ من المدّة إلى القفال. الغوص حجر الزاوية في صناعة اللؤلؤ، مجلة تراث، نوفمبر ٢٠٠٠، ص ٢٧، عبدالله عبدالرحمن، أبطال رحلة الغوص على اللؤلؤ من المدّة إلى القفال : السيب، والرضيف، والتباب، مجلة تراث، ديسمبر ٢٠٠٠، ص ٤٧

١٦. عبدالرحمن، الغوص، ص ٢٤

١٧. عبدالرحمن، السيب والرضيف، والتباب، مجلة تراث، ديسمبر ٢٠٠٠، ص ٤٩

١٨. الحمر، ١٠، وعبدالرحمن، السيب والرضيف، والتباب، مجلة تراث، ديسمبر ٢٠٠٠، ٤٩

١٩. يذكر أبوشهاب أن سردال دبي كان خميس بن خلف خديه، وفي أبوظبي حامد آل بطي، وفي الشارقة عبدالله النجار، وفي عجمان سيف بن عبيد بن بدر، وفي رأس الخيمة عبدالله بن خلفان القصير، ومحمد بن سعيد المحمود، وكان هؤلاء قادة الغطس، وأول خطوط التحكيم في المنازعات الناجمة عن صناعة وتجارة اللؤلؤ. وأورد جمعة بن ثالث الحميري في عمله قوائم بأسماء السردالات والنواخذة ذوي الأهمية، أبوشهاب ٢–٥ ١٤–١٥ الحميري

٢٠. محمد سعيد الرميثي، عيد الغوص، مجلة تراث، يناير ١٩٩٩، ص ١٩

٢١. الحمر، ص ٣٤

٢٢. محمد سعيد الرميثي، عيد الغوص، مجلة تراث، يناير ١٩٩٩، ص ١٩

٢٣. عبدالرحمن، الغوص، ص ٢٦.

24. pelly 8-10

٢٥. حمدي نصر، يريور الأمس يخاف من يريور اليوم، مجلة تراث، أكتوبر ٢٠٠٦، ص ١٨. حمدي نصر، الغوص في أعماق الغيص: سوالف سيف بن غنام السويدي عن الأسماك والمحار وغرائب البحار، مجلة تراث، فبراير ٢٠٠٠، ص ٣٦

٢٦. الحمر، ص ٢٥، حسن خميس آل علي، ملامح من الغوص القديم برؤية مجدّمي متقاعد، مجلة تراث، فبراير ١٩٩٩،ص ٢٥. عبدالرحمن، الإمارات في ذاكرة أبنائها، ص ٤١٢.

٢٧. الحمر، ص ٢٥، وآل علي، ص ٢٥. عبدالله عبدالرحمن، الإمارات في ذاكرة أبنائها، ص ٤١٢

٢٨. حمدي نصر، «معلقة بنجم سهيل حسابات الدرور «رزنامة» البحر والرياح «مجلة تراث، مارس ٢٠٠٥،ص ١٦

٢٩. أبوشهاب «٢–٥، ١٤–١٥، الحميري

٣٠. الحمر، ص ٢٥

٣١. انظر على سبيل المثال: من حكومة الهند، إدارة الشؤون الخارجية إلى وزير الدولة لشؤون الهند، ٩ نوفمبر ١٨٧٦، وهو بلاغ عن أعمال قرصنة ضد أسطول للغوص على اللؤلؤ (بقارة) وبه خطاب من الكابتن و. ف. بريدو، المقيم السياسي، ٢، ٣١ أغسطس ١٨٧٦، مصحوباً بتقرير مفصل من الشارقة يحدد الممتلكات المسروقة، ونفسه ١٦ سبتمبر، ٤ نوفمبر،١٨٧ (وزارة الخارجية ٦٩/٧٨–٣ في سجلات مصايد اللؤلؤ بالخليج ١٨٥٧–١٩٦٢، المجلد ١: ١٨٥٧–١٩١٤

32. Henderson, 17-18.

33. Wheeler and Thuysbaert, 41

34. Charles Jeffery Prior, "Report on the Trade of the Bahrein Islands for the Year ending 31st March 1931," in Persian Gulf Trade Reports 1905-1940 Bahrain II 1925-1940 (Gerrard's Cross: Archive Editions, 1987), 1.

35. Wheeler and Thuysbaert, 22, 24.

٣٦. المرجع السابق، ص٥٣

٣٧. نصر : سوالف سيف بن غانم السويدي، ص٨، ١١

٣٨. حمدي نصر، «عبدالله الرميثي: عملت طواشاً وعمري عشر سنوات، مجلة تراث، إبريل ٢٠٠٦، ص ٤٣

٣٩. نصر «دانة في زمان...»، ص ١٥

٤٠. المرجع السابق

٤١. المرجع السابق.

٤٢. حسين خميس آل علي، ملامح من الغوص القديم برواية مجدّمي متقاعد، مجلة تراث، فبراير ١٩٩٩، ص ٢٥

٤٣. نصر: شمسة...

44. Administration Report of the Persian Gulf Political Residency and Muscat Political Agency for the Year 1880-1881" in Persian Gulf Administration Reports 1873-1947 Volume II: 1879-1883, (Gerrard's Cross: Archive Editions, 1986),

٤٥. عبدالرحمن، الإمارات في ذاكرة أبنائها، ص ٤٠٥

٤٦. المرجع السابق، ص ٤٠٥، ٤٠٦

٤٧. المرجع السابق، ص ٤٠٨

٤٨. المرجع السابق، ص٦

٤٩. عبدالله عبدالرحمن، رحلة الغوص على اللؤلؤ من المدّة إلى القفال، مجلة تراث، سبتمبر ٢٠٠٠، ص ٦٧، ٦٨

٥٠. عبدالرحمن، رحلة الغوص على اللؤلؤ ص ٦٦–٧٠. حسن قايد «بدايات الإمارات: تقاليد وعادات، أبوظبي، مؤسسة الاتحاد، ١٩٨٠، ص٧٠

51. Bristol-Rhys, 60

٥٢. المرجع السابق، ص ٦١

53. Linda Usra Soffan, Women of the United Arab Emirates (London: Croom Helm, 1980),49-101; al-Oraimi, 174

54. Bristol-Rhys, 69.

٥٥. عبدالرحمن، الإمارات في ذاكرة أبنائها، ص ٤١٣

٥٦. «الوالدة أم سالم، مجلة تراث، ديسمبر ١٩٩٨، ص ٤٢

57. Bristol-Rhys, 69.

٥٨. عبدالرحمن، الإمارات في ذاكرة أبنائها، ص ٤١٠

٥٩. المرجع السابق ص ٤٢٠.

60. 'Abd al-Rahman al-Imarat fi Dhakirat 'Ibnai'ha, 410.

اكتشافي للخليج عام ١٩٦٤م

ألن سانت هيلاري[1]

كانت زيارتي الأولى للخليج عام ١٩٦٤م مغامرة بالمعنى الحرفي للكلمة، وقد يكون مفيداً أن أشير بإيجاز إلى رحلاتي السابقة قبيل وصولي إلى هذا الجزء من العالم؛ ففي عام ١٩٦١م قمت مع أحد أصدقائي برحلة حول شمالي أوروبا وحتى فنلندا بطريقة الإشارة للسيارات المارة، وطلب مرافقة سائقيها أطول مسافة ممكنة (هتش هايكنج). وقرر ثلاثة منا بعد ذلك بعامين تنظيم رحلة إلى الهند، ولمّا كنّا طلبة قمنا بأداء أقصى ما يمكننا من أعمال لكي نجمع المال اللازم لتمويل الرحلة. ومن حسن الحظ كان لنا صديق يكبرنا سناً، وكان له مكتب للتصميمات الصناعية بالمبنى الذي عشنا فيه في ضواحي باريس. ولمّا كان مالكاً لذلك العقار كان مسؤولاً عن صيانته؛ ولذا سعدنا حين طلب منا أن نقوم بأعمال غريبة مثل: صيانة حديثة للمبنى، وطلاء بئر السلم، وتوصيل المعدات الصغيرة إلى أماكن مختلفة بالمدينة، وكلها أعمال شغلت أوقاتنا أيام العطلة. وادّخرنا المبالغ البسيطة التي كسبناها لكي نموّل مشروعنا الجديد. وهكذا ابتعدنا تماماً عن أنشطة مثل ارتياد دور السينما، أو نوادي الموسيقى، وركزنا في هدفنا – وهو السفر إلى الهند– ولم نسمح لأي نشاط أو ترفيه آخر بأن يحول دون هدفنا هذا، وتركزت كافة أحاديثنا في رحلتنا المقبلة. وقررنا السفر بالسيارة من باريس إلى الهند عام ١٩٦٢م، سالكين الطريق ذاته الذي اختاره رحالة سابقون للسفر من أوروبا إلى الهند. واشترينا سيارة قديمة من طراز «ستروين» عملاً بنصيحة صديقنا، وهو الطراز المعروف باسم «١١ سي. في» وطلينا سقفها باللون الأبيض حتى يعكس الحرارة.

في ١٩٦٢/٧/١٤م – وكان يوافق العيد الوطني الفرنسي – ودّعنا عائلاتنا وأصدقاءنا الكثيرين في السكن الذي كنا نعيش فيه في باريس، وكنا نرى في عيون شركائنا وأصدقائنا العواطف القوية تجاهنا وهم يروننا نسافر إلى أماكن ومدن وبلدان غير معروفة. كنا ثلاثة شبان أعمارهم: عشرون عاماً، وثمانية عشر عاماً، وثمانية عشر عاماً، على الترتيب، وكنت أكبرهم. وأنا مدين لوالديّ منذ ذلك اليوم لأنهما لم يمنعاني من القيام بتلك الرحلة على الرغم من أنهما كانا يودّان ذلك بكل تأكيد.

لقد كان لنا العديد من المغامرات والاكتشافات على طول الطريق، فقد التقينا مجموعة من الطلبة الفرنسيين بالقرب من إسطنبول، كانوا متوجهين إلى راجستان في حافلة باريسية قديمة، ونفد وقود سيارتنا في الطريق، وأنقذنا من هذا المأزق بعض البدو الرُّحل الذين صادفونا في الصحراء الإيرانية الجنوبية حول بحيرة نيريس. وفي الهند رحب بنا سفير نيوزيلندا الذي صادفنا في أحد شوارع المدينة لدى وصولنا، وكان غاية في الكرم، وحضرنا معه احتفالات العيد الوطني الهندي في نيودلهي في القلعة الحمراء حيث شاهدنا الباندیت جواهر لال نهرو عن قرب. ولسوء الحظ تعطل محرك سيارتنا، ولم يكن أمامنا خيار سوى تركها وراء ظهورنا. والتقينا مجموعة من الطلبة الفرنسيين أتوا في سيارتهم من طراز «ستروين ٢ سي في» الطراز الشعبي للسيارة

الفرنسية التي تشبه السلحفاة، وعرضوا اصطحاب واحد منا فقط إلى أوروبا، لكننا قررنا العودة بالسيارة إلى فرنسا؛ إذ لم يتبق معنا من المال سوى ما يُمكِّنْ من شراء الوقود لرحلة العودة، ومع ذلك قرر أصغرنا العودة بالباخرة من بومباي.

في طريق العودة إلى فرنسا أصابنا الإجهاد لقيادة السيارة بشكل متواصل نهاراً وليلاً، ولمّا اقتربنا من إسطنبول – ولاشك أن النوم غلبني وأنا أقود السيارة – اصطدمت بشاحنة كبيرة، ونجوت من الحادث بفضل العلاج الذي تلقيته بمستشفى حيدر باشا في إسطنبول. وعدت إلى باريس بالطائرة وأنا مصاب بكسور في الأطراف، وذلك ما أصرّ عليه القنصل العام الفرنسي بالمدينة. ولم تكن تلك نهاية المغامرة، فما إن وصلت إلى باريس حتى توجهت إلى المستشفى؛ إذ كنت مصاباً بخلعٍ في عظمة الفخذ لم يكتشفه الأطباء في إسطنبول؛ فقد كانت أشعة إكس في ذلك الوقت رديئة.

وقد تعافيت تماماً وسريعاً لصغر سني وجودة صحتي، ولم أشكو شيئاً، لكن المشكلة الوحيدة كانت في عدم قدرتي على السير. وهكذا بقيت في المستشفى فترة، وكان ذلك بسبب تعجّلي في مغادرة المستشفى في إسطنبول، وعدم تمكن الطبيب من تشخيص إصاباتي تشخيصاً صحيحاً، وإصرار القنصل العام على مغادرتي البلاد سريعاً.

وجد الأطباء الفرنسيون أنهم بصدد حالة غريبة لم يروا مثلها من قبل: شخص يعاني نقلاً في عظمة الفخذ منذ ستة أسابيع. ولم يكن التشخيص جيداً؛ فقرروا أن أستخدم عكازاً للمساعدة على المشي، وعدت إلى طبيعتي بعد عام بفضل الأطباء في إسطنبول وباريس، وبدأت التخطيط في الوقت نفسه لرحلة جديدة، وقررنا السفر لاستكشاف منطقة الخليج العربي وإماراتها الأسطورية بكل ما يكتنفها من غموض، وكان من أهدافنا استكشاف المتغيرات التي ترتبت على اكتشاف «الذهب الأسود» وأطلقنا على رحلتنا اسم «شبه الجزيرة العربية ٦٤». ولمّا كنّا قد تعلمنا الكثير من رحلتنا إلى الهند فقد قررنا الاتصال بالصحف المحلية، ومحطات التلفزة للحصول على المزيد من المعلومات، وواظبنا على حضور الاجتماعات الأسبوعية التي يعقدها نادي المستكشفين في باريس. وهناك التقينا بعض مشاهير المستكشفين في ذلك العهد. وساعدنا رئيس النادي على إعداد خطة لمشروعنا، ثم عرضها على لجنة بلدية مدينة باريس لضمّها إلى المشاركين في مسابقة لنيل «جائزة المبادرات الشبابية». وقد أسعدنا الحظ، وفزنا بالجائزة الإقليمية، وخسرنا الجائزة القومية بفارق نقطة واحدة، ومع ذلك حصلنا على إعانة مالية متواضعة، وزوَّدتنا السلطات المحلية بخطابات توصية. وتجدر الإشارة إلى أن التلفزيون الفرنسي منحنا عدة لفائف من الأفلام (أبيض وأسود) لتصوير ما نستطيع تصويره عن شباب الخليج. وكان آخر ما قمنا به هو الحصول على التأشيرات، وكانت الكويت هي الدولة الوحيدة المستقلة آنذاك؛ إذ نالت الاستقلال عام ١٩٦١م، أما باقي إمارات الخليج فقد كانت محميات في سلطة بريطانيا؛ ولذا كان عليّ مخاطبة القنصلية البريطانية في باريس للحصول على التأشيرات. وقد التقيت القنصل الذي هنأني، وزودني بتأشيرات لدخول البحرين، وقطر، وأخبرني أن علينا – في أثناء وجودنا بالخليج – الحصول على إذن من المعتمد السياسي البريطاني في الدوحة لدخول الإمارات المتصالحة، ولاسيما أبوظبي، ودبي.

حصل صديقنا العزيز على إجازة من مكتب تصميم الأطر المعدنية لكي يقود سيارتنا من باريس حتى مرسيليا، ومن هناك نركب سفينة الركاب اليونانية «مساليا». وقد أدهشتنا مشاهدة فريق من التلفزيون المحلي وهو يصورنا ونحن نصعد إلى السفينة، ولم يتمكن ذلك الفريق من متابعتنا حتى الكبائن، فقد افترشنا

سطح السفينة العتيقة، التي علاها الصدأ، ما زاد من قدْر المغامرة. استغرقت الرحلة تسعة أيام، وتوقفت السفينة في كل من جنوا ونابولي بإيطاليا، وفي لي بيري باليونان، وليماسول بقبرص، والإسكندرية بمصر، وأخيراً في بيروت بلبنان. وفي شارع الحمراء ببيروت التقيت صديقاً كان زميلاً في كلية الهندسة المدنية في باريس، وكان يجلس إلى جانبي في غرفة الدراسة، وهكذا تبينت كيف أن العالم صغير في الواقع! وقد طلب منا البقاء بعض الوقت في بيروت للاستمتاع بما فيها، لكن شيئاً لم يكن ليمنعنا من التوجه إلى الخليج: هدفنا في الثمانية عشر شهراً الماضية.

بدء مغامرتنا في الخليج – «الجزيرة العربية ١٩٦٤»

توجهنا إلى الكويت جواً بعد يومين على متن طائرة لطيران الشرق الأوسط، وكانت في ذلك الوقت الشركة الوحيدة التي تُسير رحلات إلى إمارات الخليج كافة. ولمّا اقتربت الطائرة من الكويت دُعينا إلى قمرة القيادة لنشاهد المنظر الرائع للشعلات المنبعثة من حقول النفط الخام وسط الصحراء، وكان منظراً رائعاً حقاً ؛ إذ ترى الأفق وقد أضاءه قوس بلون أحمر وأصفر ممتد فوق رمال الصحراء. وهبطت الطائرة وتوقف محركها تماماً أمام ما بدا وكأنه ثكنة عسكرية صغيرة، ولكن قيل لنا: إنه المطار. وما إن فتح باب الطائرة – وكان

الليل قَد حَلَّ – حتى واجهتنا لفحة من هواء ساخن انتشر داخل الطائرة، ولمّا وصلنا إلى باب الطائرة شعرنا وكأننا نقف خلف محرك طائرة نفاثة أخرى، أو كأننا ندخل إلى فرن، وكنّا – تقريباً – الركاب الوحيدين على متن الطائرة. وفي داخل المطار ساعدت مكيفات الهواء على خفض درجة الحرارة إلى درجة مقبولة. وكان صديق لأحد أصدقائنا من أصل سوري ومتزوج بسيدة فرنسية ينتظرنا هناك، وكان يعمل في مجال استيراد البضائع إلى الكويت، ولاسيما الدقيق الذي كان الطلب عليه كبيراً لصنع الخبز، وغيره من المواد الغذائية.

توجهنا إلى وزارة الإعلام والسياحة في اليوم التالي، والتقينا وكيل الوزارة السيد صالح شهاب، وكان ودوداً جداً، وطلب منا ترجمة أجزاء من الإصدارات الوطنية السنوية إلى اللغة الفرنسية، وإعداد تقرير عن موضوع في التخصص الدراسي لكل منا. ولمّا كنت أدرس الهندسة المدنية في باريس، فقد اخترت موضوعاً في إنشاء مطار الكويت الجديد، وكان قيد الإنشاء آنذاك، وبناءً على ذلك كانت تأتيني كل صباح سيارة من الوزارة، وتأخذني إلى الموقع الذي كنت أجري فيه مقابلات مع العمال والمهندسين في المشروع الذي كان العمل فيه يسير على قدم وساق، وكانت تلك خبرة جيدة، مثلما كانت خبرات زملائي في مجالي الاقتصاد، والعلاج الطبيعي. كنّا ندعى أيام الجمع إلى مرافقة السيد شهاب في أثناء تنظيمه رحلات للسياح الأجانب إلى جزيرة «فيلكة» لمشاهدة الآثار التي تعود إلى عهد الإسكندر الأكبر، وحتى يتسنى لنا تصوير أفلام فقد رتب لنا لقاءات مع طلبة الجامعة. وكان الصيد بالصقور هو الموضوع الوحيد الذي لم نتمكن من الحصول على إجابات صريحة فيه. و لم نحصل على معلومات كافية عن ذلك النشاط على الرغم من التقائنا أحد الصيادين بالصقور، وبدأنا ندرك أن الناس يحاولون إخفاء سرّه! ثم علمنا أن الأمر مختلف تماماً.

مواقع أثرية في جزيرة فيلكا

قصر السيف، الكويت

قلعة الجهراء، الكويت

ميناء الكويت في ستينيات القرن العشرين

حان وقت السفر جواً إلى البحرين بعد قضاء ثلاثة أسابيع بالكويت، فودعنا أصدقاءنا الجدد بشيء من الحزن! وما إن هبطنا في تلك الجزيرة الصغيرة التي تبلغ مساحتها ٥٠٠ كيلو متر مربع، ركبنا سيارة أجرة وسألَنا السائقُ: إلى أين تريدون الذهاب؟ وبدون أدنى تردد أخبرناه بأننا نرغب في لقاء صاحب السموّ حاكم البحرين! وليس لأحد اليوم أن يتخيل مثل ذلك الطلب، لكن ذلك هو ما حدث؛ فبات اللا معقول معقولاً! وتوجّه السائق أولاً إلى سوق المنامة عاصمة البحرين، وتوقف عدة مرات على الطريق للتحدث هاتفياً، وتوقف أخيراً أمام بوابة خشبية كبيرة وسط جدار عالٍ، وجاء حارس إلى البوابة وطلب منا الانتظار، وبعد دقائق قليلة جاء رجل متوسط العمر يرتدي الزي الوطنيِّ، وحَيَّانا، وتحدث إلى السائق موجهاً إياه للذهاب إلى الفندق الخاص بشركة الطيران البريطانية (BOAC)، وهو الفندق الوحيد بالجزيرة، وأضاف: إننا ضيوف على الحاكم، وإن شخصاً سوف يأتي لمقابلتنا في اليوم التالي. ثم علمنا أن ذلك الرجل هو الشيخ أحمد بن

سلمان بن خليفة شقيق الحاكم الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة. وقد كان عسيراً علينا أن نصدق ما نرى؛ فتلك كانت لفتة أكبر من كرم الضيافة، وكان حلمنا يتحول إلى حقيقة، فنحن أتينا من أماكن لا تعرف مثل كرم الضيافة هذا؛ لذا غمرنا الدهش، بل الصدمة!.

زارنا مدير العلاقات العامة بوزارة الإعلام في اليوم التالي، مستفسراً عن الغرض من زيارتنا، فأطلعناه على خططنا لإنتاج فيلم عن شباب الخليج، فوعد بمساعدتنا، ثم ناقشنا حرفة أهل البحرين الرئيسة التي كانت لا تزال الغوص على اللؤلؤ آنذاك، لكنه لم يشأ الخوض في ذلك الموضوع، وفهمنا أن تلك الحرفة التقليدية لم تكن مؤشراً على التنمية، وأن علينا عدم الخوض فيها مرة أخرى. وقد بدا ذلك غريباً لنا؛ فالبحرين معروفة بأنها «لؤلؤة الخليج»، ومع ذلك قررنا عدم الإشارة إلى ذلك الموضوع مرة أخرى. وفي اليوم التالي أخذونا إلى الرفاع الغربي حيث قصر الحاكم لحضور مجلسه اليومي، وكان زهاء خمسين شخصاً قد اتخذوا مقاعدهم داخل قاعة كبيرة بها أرائك وكراسي مرصوصة على طول الجدران، وأرضها مفروشة بالسجاد. ووقف العديد عند البوابة ممن يعملون في الصيد بالصقور، حاملين صقورهم على أيديهم. ودخلنا إلى القصر فدلفنا إلى غرفة صغيرة أولاً حيث قدموا لنا الشاي، ثم وصل الشيخ عيسى، وتوجه من فوره إلى القاعة التي احتشد بها الناس ليستمع إليهم ويجتمع بهم. وقد علمنا أن أي شخص في البحرين يستطيع أن يأتي إلى المجلس اليومي للحاكم ليلتقيه، ويعرض عليه مشاكله ومطالبه؛ فقد كان ذلك تقليداً عريقاً يبين ديمقراطية الصحراء التي كان الحكام والقبائل يمارسونها. وأتى الشيخ عيسى إلينا بعد نحو نصف ساعة ليرحب بنا في جزيرة البحرين، واستمع إلينا، وقال: إننا ضيوف عليه طوال فترة إقامتنا بها. وكان على رأسه عقاله الذهبي، وظهر خنجره الرائع بوضوح، وهو خنجر الخليج التقليدي، وإن كان غمده من الذهب الخالص، وقد زُيِّن بلآلئ وأحجار كريمة حقيقية، وكان مقبضه من قرن حيوان ما. وقد شغفني جمال ذلك الخنجر الذي شاء القدر بعد ذلك أن يمنحني الشيخ عيسى فرصة لفحصه في أثناء لقاء خاص معه.

الشيخ عيسى بن سلمان، حاكم البحرين آنذاك

قصر حاكم البحرين، ١٩٦٤م

ومضت أيامنا الجميلة في البحرين، وتوجهنا إلى ميناء الصيد حيث شاهدنا بعض سفن «الدهو» التي تستخدم في الغوص على اللؤلؤ. وبعد أسبوع قررنا القيام بمحاولة أخرى لاستشراف تلك الحرفة، فتوجهنا إلى الميناء للقاء أحد نواخذة «الجالبوتات»، وهي سفن صغيرة وشائعة في المنطقة. وفي الصباح التالي تركنا أمتعتنا لدى بعثة الكنيسة المشيخية في البحرين، وأخذنا معدات التصوير، وذهبنا في رحلة بحرية رائعة دامت أسبوعاً على متن «جميلة»، وهو اسم سفينة الجالبوت، وذلك مقابل ١٠٠ دولار أمريكي.

مركب صيد سمك تقليدي وطاقمه قبالة ساحل المنامة، ١٩٦٤م

على متن مركب صيد سمك تقليدي، البحرين ١٩٦٤م

البضائع في ميناء المنامة، ١٩٦٤م

استغرق الوصول إلى مغاصات اللؤلؤ عدة ساعات، وهناك وجدنا عشرة زوارق أو خمسة عشر زورقاً تجمعت هناك منذ بداية الموسم الدافئ في يونيو، وكان الغوص على اللؤلؤ يتم في شهور الصيف فقط. وعلمنا أن الغواصين كانوا يحصلون على الماء العذب من أعماق البحر حيث تكمن بعض الينابيع. وكان أحدنا دائم الإصابة بدوار البحر، وكان سبيله الوحيد للتغلب على ذلك هو السباحة حول الزورق. وكانت «جميلة» تقطر قارباً صغيراً للنجاة مصنوعاً من جذع شجرة بعد تجويفه، وكان شديد الاهتزاز، وكثيراً ما كنا نستخدمه للقفز إلى سطح السفينة، فقد كانت تلك وسيلتنا الوحيدة لنقل معدات التصوير للزوارق الأخرى؛ ولذا قررنا استخدامه لهذا الغرض. وكنا نضع المعدات على الزورق، ثم نتجه إلى البحر قبل دفعه للأمام وصولاً إلى زورق آخر، وكان ذلك عملاً شاقاً تعيّن علينا القيام به مرتين أو ثلاث مرات يومياً.

كانت حياة الغواصين على اللؤلؤ عجيبه تماماً، وكانوا يستطيعون البقاء تحت الماء نحو ثلاث دقائق في كل مرة، و لم تكن لهم أي حماية سوى ملقط [٢] على الأنف، وأغطية مطاطية للأصابع. وكانت عيونهم في حالة يرثى لها لارتفاع نسبة تركيز الأملاح في مياه الخليج. وبينما كان الغواصون يعملون في قاع البحر كان بقية أفراد طاقم السفينة يفتحون المحار، وكانوا يجدون لؤلؤة واحدة في كل ثلاثة آلاف محارة عادة؛ ولذا كان العمل شاقاً جداً. وعدنا إلى المنامة بعد قضاء أسبوع في عرض الخليج، وكان الشيء الغريب الوحيد الذي شاهدناه هو ناقلة نفط متجهة إلى الكويت، وسألت نفسي عما ظنه أفراد طاقمها وهم يشاهدوننا بنظاراتهم المكبرة.

الجيل الأخير من غواصي اللؤلؤ قبل نشأة الإمارات الغنية بالنفط.

كانت مهنة الغوص على اللؤلؤ مهنة شاقة وقاسية نتيجة الأدوات البدائية فيها و عدم وجود أي وسائل حماية فعلية

كان بقية أفراد الطاقم يشغلون أنفسهم بفتح المحار، أثناء نزول الغواصين إلى قا ع البحر

عندما يعود الغواصون من رحلتهم يُستقبلون بالأهازيج والموسيقى احتفاء بما أنجزوه

وغادرنا إلى الدوحة بعد يومين من عودتنا من مغاصات اللؤلؤ، وكان وصولنا إليها مطابقاً لما حدث لدى وصولنا إلى البحرين؛ فقد طلبنا من سائق سيارة الأجرة أن يأخذنا إلى الحاكم، فتوجه بنا إلى قصره حيث التقينا سكرتيره السيد دجاني، ومكثنا عدة ساعات هناك نحتسي الشاي حتى سُمِحَ لنا بلقاء الحاكم صاحب السمو الشيخ أحمد بن علي آل ثاني، قرب نهاية اليوم، ودعينا إلى الإقامة في ذاكَ القسم من قصر الأمير في الغرف المواجهة لسكن الحرس. وفي الدوحة التقينا وزير الخارجية، وآخر «لورنسات شبه الجزيرة العربية» رونالد كوشرين الذي كان يعرف أيضاً باسم «محمد مهدي»، وهو الذي أسس قوة الشرطة القطرية، وبفضل مساعدته توغلنا في الصحراء حتى حدود المملكة العربية السعودية. وطوال رحلتنا عبر شبه جزيرة قطر رافقنا مرشد بريطاني كان يعمل كشرطي، وأطلقنا عليه اسم «الميجور تومسون» لشاربه الأبيض. ومررنا بمواقع تعود إلى ما قبل التاريخ ليست بعيدةً عن العاصمة؛ وذلك في أثناء انتظارنا للحصول على تأشيرات لدخول دبي. وقررنا العودة إلى بيروت بعد انتظار خمسة أسابيع، وكان من المقرر أن نعود إلى مرسيليا بحراً. وجاءتنا التأشيرات التي طال انتظارها في صباح يوم المغادرة، فقد اتصل بنا المعتمد السياسي البريطاني ليزّف إلينا النبأ السعيد، لكن ردّ أبوظبي كان سلبياً لسوء الحظ؛ فقد علمنا أن الشيخ شخبوط بن سلطان آل نهيان حاكم أبوظبي لم يكن على استعداد للقائنا؛ لذلك ألغينا كافة «الحجوزات» فوراً، وتوجهنا إلى مطار الدوحة للسفر إلى دبي.

الرقصات التقليدية في الدوحة في ستينيات القرن العشرين

قوارب صيد السمك التقليدية في ميناء الدوحة في ستينيات القرن العشرين

هبطت الطائرة في مطار القوات الجوية الملكية بالشارقة، وهو مطار بمدرج واحد، ولا يحيط به أي مباني أخرى. وبعد خروجنا من الطائرة كان علينا البحث عن أمتعتنا وسط كومة من الحقائب الملقاة على الرمال. وبعد أن تسلمنا كل متعلقاتنا جاءنا سائق سيارة أجرة، وما إن ركبنا السيارة قلنا له: من فضلك خذنا إلى صاحب السموّ حاكم الإمارة. وتوجه السائق إلى دبي، وأجرى مكالمات هاتفية قليلة، ثم أخذنا إلى الفندق الخاص بشركات الطيران، وشأنه شأن فندق كارلتون فقد كان أحد الفنادق القليلة في دبي آنذاك، ولم يكن يبعد كثيراً عن الخور.

زارنا السيد محمد عبد الرزاق بعد برهة، وكان مستشاراً لصاحب السموّ الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم، وأخبرنا أنه سوف يلتقي صاحب السموّ الشيخ راشداً في الصباح التالي، وسألنا عما نحتاج إليه. وقد تعوّدنا ذلك الآن. وكنا في عالم «ألف ليلة وليلة» وكان الأمر كله كحلم! وفي اليوم التالي توجهنا إلى مكتب الحاكم بجانب الخور، وسألَنا الشيخُ راشد عما يمكنه أن يفعله من أجلنا، ولم يكن لدينا أي مطلب خاص سوى أن علينا العودة إلى بيروت خلال أيام قليلة لكي نركب السفينة عائدين إلى مرسيليا. وأوضحنا أننا نستطيع أن نمكث في دبي عشرة أيام أخرى إن استطعنا العودة إلى باريس جواً من بيروت، ومال الشيخ راشد على طاولته ليتحدث إلى سكرتيره، وأخبرنا بعد دقائق أنه يسعده كثيراً أن نمكث في دبي، وأنه على استعداد لشراء تذاكر الطيران إلى باريس إذا قبلنا ذلك، وكان ردنا غاية في السرعة والشكر: نعم.

كان لقائي الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم – رحمه الله – حاكم دبي آنذاك– تجربة لا تنسى

دبي عام ١٩٦٤م

وهكذا كانت لنا فرصة السفر عبر الإمارات الأخرى: الشارقة، عجمان، أم القيوين، الفجيرة، ورأس الخيمة التي التقينا حاكمها الشيخ صقر بن محمد القاسمي. وكانت دبي في ذلك الحين العاصمة التجارية ومركز الأعمال الرئيس في المنطقة كلها، كانت كمستودع ضخم لتجارة الجملة لكافة الإمارات المتصالحة، واشتهرت بتجارة الذهب أيضاً، وكان التجار المتمكنون يشترون الذهب في ذلك الحين، ويبيعونه في البورصة في لندن أو سويسرا. وكنا نشاهد أحياناً طناً من الذهب على مدرج مطار الشارقة بلا حراسة، و لم يجرؤ أحد على لمسه. ولمّا كانت أسعار الذهب والرسوم الجمركية عالية جداً في السوق الهندية فقد بات التهريب نشاطاً مربحاً كثيراً. وكان خور دبي رائعاً حقاً، وقد رست فيه مئات من سفن «الدهو» جنباً إلى جنب. وهنا بدأنا نتخيل مغامرات تلك السفن وأطقمها وهي تبحر من الساحل الشرقي لإفريقية – كينيا، وتنجانيقا، وزنجبار – وتشبع الهواء برائحة التوابل القادمة من الهند، وماليزيا، وإندونيسيا. وكنا في عالم السندباد البحار حقاً بكل روعته وجماله.. بين الحلم والحقيقة.

مدينة دبي في أواخر ستينيات القرن العشرين

خور دبي في مطلع ستينيات القرن العشرين

كان خور دبي باهراً حقاً بمئات المراكب المصطفة بعضها بجانب بعض

أثناء زيارتي للشارقة حظيت بلقاء حاكمها آنذاك الشيخ خالد بـن محمد القاسمي – رحمه الله –

مناظر من الشارقة عام ١٩٦٤م

استمعنا إلى أغاني فرنسية منبعثة من غرفة مجاورة في أثناء إقامتنا في فندق شركات الطيران، وسريعاً تعرفنا إلى شاغلها، وكان رجلاً لبنانياً يعمل في شركة مالية قابضة مقرها الرئيس في لندن، واقتضى عمله التنقل بين أم القيوين وعجمان، ورأس الخمية، والفجيرة، واصطحبنا معه في زياراته للحكام. وقد اجتزنا الجبال وصولاً إلى دبا، والفجيرة، وخورفكان حيث شاهدنا صيادي الأسماك وهم يصلحون شباكهم على الشاطئ.

مرفأ خورفكان، ١٩٦٤م

رأس الخيمة، ١٩٦٤م

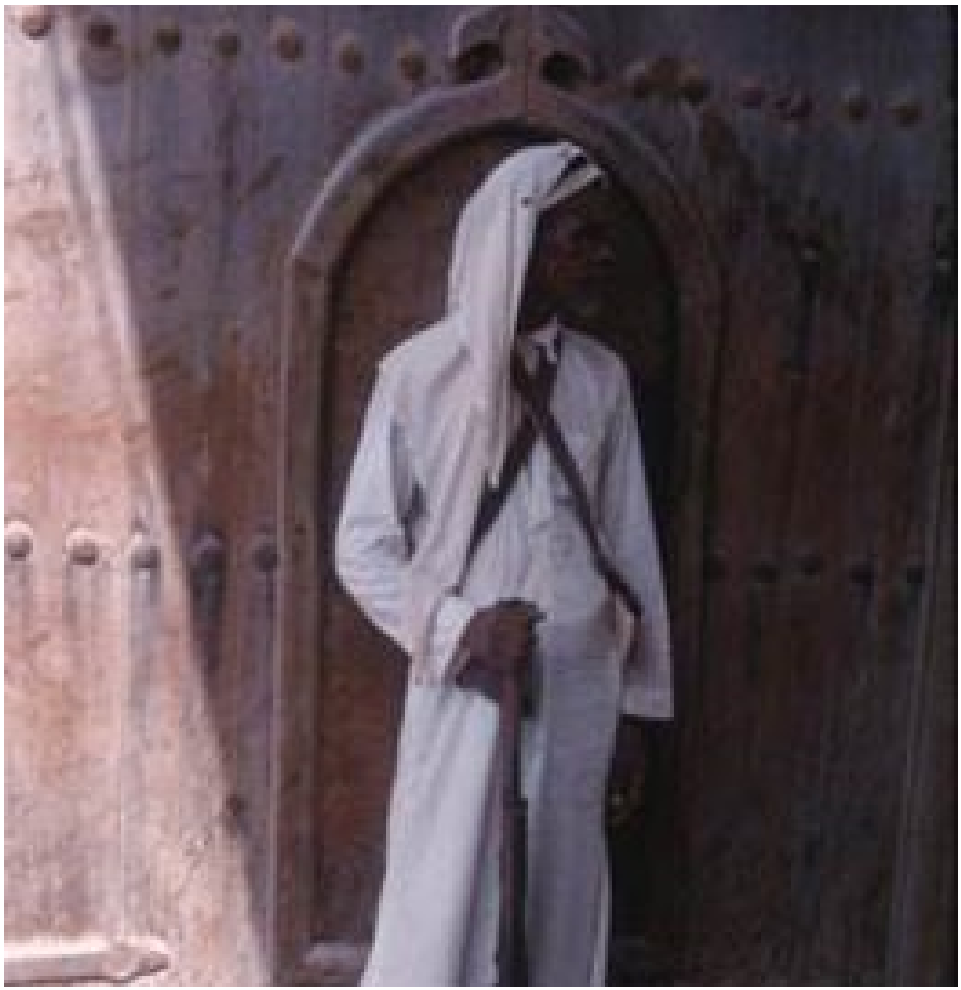

حرس القصر في رأس الخيمة،١٩٦٤م

منظر جوي لقلعة الفجيرة في ستينيات القرن العشرين

مناظر لقلعة الفجيرة

امرأة تطحن الحنطة، الفجيرة، ١٩٦٤م

مناظر من عجمان في ستينيات القرن العشرين

عودة إلى الوطن (الإمارات) منذ الصيف المميز عام ١٩٦٤ م

وقد عُدت إلى الخليج عام ١٩٦٩م لإعداد فيلم تعليمي عن المنطقة، ثم كنت أزورها سنوياً حتى عام ١٩٧٨م. والتقطت في الوقت نفسه أفلاماً عن اليمن في فترة ١٩٧٢–١٩٧٦م، ثم عن العراق عام ١٩٧٩م. وقدمت إلى المنطقة مرة أخرى عام ١٩٨٨م لاستكمال فيلم للقناة الخامسة في التلفزيون الفرنسي.

ولسوف أتذكر إلى الأبد مغامراتنا الكبيرة في الخليج العربي في صيف ١٩٦٤م، وياله من صيف!.

الهوامش

١. ألن سانت هيلاري هو المصور والمخرج السينمائي والمؤلف الذي سجلت صوره الفوتوغرافية الأيام الخالية لشبه الجزيرة العربية. وقرر في شبابه زيارة ذلك الجزء الغريب من العالم الذي لم يكن قد اكتشف تماماً بعد بكلٍّ ما به من غموض، وثقافة متميزة، وأساطير رومانسية. وكان ألن قد حصل على دعم مالي من القناة الثالثة بالتلفزيون الفرنسي للسفر إلى الخليج لتصوير آخر الغواصين على اللؤلؤ قبيل اكتشاف النفط في المنطقة. وكانت زيارته الأولى عام ١٩٦٤م حين سافر إلى الكويت، والبحرين، وقطر، والإمارات العربية المتحدة مع رفيق لطفولته، ثم عاد إلى الخليج في زيارات كثيرة بعد ١٩٦٤م. وفي ٢٠١١م منحه سموّ الشيخ محمد بن زايد آل نهيان، ولي عهد أبوظبي، نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة بدولة الإمارات العربية المتحدة – «جائزة أبوظبي». وفي ١٩٦٩ عاد إلى أبوظبي، ودبي، والشارقة، وعجمان، ورأس الخيمة، والفجيرة، والتقى حكامها، وأعدّ فيلماً عن الصيد بالصقور، عرض في القناة الرابعة بتلفزيون نيويورك في إطار برنامج «عالم غريب» سلسلة الزمن والحياة.

٢. «فطام» باللهجة الخليجية.

الضبط الاستنادي للأسماء الجغرافية في دولة الإمارات العربية المتحدة: تقييم الممارسات ورسم التوجهات نحو أفضل التطبيقات[1]

رياض بن لعلام

تمهيد:

الضبط الاستنادي هو من الحلقات الضعيفة في نشاط الفهرسة في مؤسسات المعلومات العربية لأسباب كثيرة ومتنوعة منها قلة البحث العلمي، والتطبيقات العملية لضبط الاستناد العربي؛ ولذلك رأينا أن نشارك في بحث موضوع قلّما تناوله المختصون العرب، هو «ضبط استناد الأسماء الجغرافية مع دراسة حالة الأسماء الجغرافية في دولة الإمارات العربية المتحدة» للتحديات الجديدة التي تواجه نظم المعلومات الوطنية في العالم العربي. وتستعرض هذه الورقة أهمية الضبط الاستنادي للأسماء الجغرافية في إطار نظام معلومات وطني متكامل تستفيد منه كل مؤسسات المعلومات: المكتبات، والأرشيفات، والمتاحف، وتعرض كذلك التجارب الدولية وأفضل التطبيقات في هذا المجال، مع عدم إغفال الممارسات الجارية لضبط استناد الأسماء الجغرافية في عينة من أهم مؤسسات المعلومات في دولة الإمارات العربية المتحدة.

وتنتهي الورقة إلى اقتراح آلية تنفيذ مشروع «الملف الاستنادي للأسماء الجغرافية لدولة الإمارات العربية المتحدة» وتوصيات فنية لضبط جودة بيانات الأسماء الجغرافية في النظم الآلية لأغراض المكتبات والأرشيفات والمتاحف.

راودنا التفكير في هذه الورقة تبعاً لعملية تقييم و ضبط جودة قاعدة المعلومات الخاصة بمكتبة المركز الوطني للوثائق والبحوث بوزارة شؤون الرئاسة؛ فلاحظنا الاختلاف بين مداخل الأسماء الجغرافية التي يتم إنشاؤها بالفهرسة الأصلية باللغة العربية والمداخل التي ينشئها النظام آلياً من التسجيلات البيليوغرافية للعناوين الأجنبية التي تتم فهرستها «بالفهرسة بالنسخ» باستيرادها من OCLC [2] أساساً أو باستخدام تقنية Z39.50 من موقع مكتبة الكونغرس LOC وشبكة Ohio وغيرهما. وتستخدم المكتبة الفهرسة بالنسخ بالاستيراد من بعض الفهارس الآلية العربية كفهرس اتحاد مكتبات التعليم العالي في دولة الإمارات العربية المتحدة "ليوا" [3] وجامعة الإمارات العربية المتحدة[4]، وقاعدة معلومات الفهرس العربي الموحد[5].

لقد تطلب الأمر منا إجراء العديد من المراجعات والتعديلات في أشكال المداخل، وتصحيح الأخطاء الناتجة من اختلاف مصادر التسجيلات واختلاف ممارسات إعدادها؛ فنعرض بعض الملاحظات والممارسات المرتبطة بضبط استناد عينة من الأسماء الجغرافية أثناء عملية ضبط الجودة ومقارنة واقع الحال في الفهارس الإلكترونية العربية، وفروق أدوات التكشيف أو ضبط الاستناد المستخدمة؛ فاخترنا عينة من مكتبات الدولة وبعض دول الخليج والدول العربية الأخرى، وكبريات المكتبات الوطنية على المستوى الدولي.

إن الغاية من هذه المساهمة أن نتبادل الخبرات وأفضل الممارسات في ضبط الاستناد وليس تقييم الاسترجاع في النظم الآلية المستخدمة في المكتبات. وقد حاولنا تنويع المكتبات المستهدفة، والتنويع في نظم إدارة المكتبات لتفادي أي تأويل. وحاولنا البحث في فهارس المكتبات الوطنية، فإن تعذّر اخترنا واحدةً من الجامعات المهمة في البلد نفسه. واختيارنا المكتبات الوطنية أساساً أو ما يقوم بمهامها؛ لأنها تقوم بمسؤولية الضبط الاستنادي المحلي، وتطوير وصيانة الملفات الاستنادية الوطنية – والملف الاستنادي الجغرافي جزء لا يتجزأ منها– إلا أننا لم نتمكن من استغلال الفهرس الإلكتروني لمعظمها وبخاصة: المكتبة الوطنية القطرية، ودار الكتب والوثائق القومية في مصر[٦]، ومكتبة الكويت الوطنية، وجامعة الكويت[٧]، والمكتبة الوطنية المغربية[٨].

أهمية ضبط استناد الأسماء الجغرافية في نظم المعلومات:

من المسلّم به أن "ضبط جودة البيانات" محور هام من محاور هندسة المكتبات؛ فينبغي أن يكون عنصراً هاماً في أي خطة إستراتيجية أو خطة عمل للمكتبات بخاصة، ومؤسسات الذاكرة LAM [٩] بعامة، ويمكن اعتبار ضبط جودة البيانات البيليوغرافية والاستنادية نشاطاً مركزياً رئيساً للمكتبات؛ لأهميته البالغة وتعقيداته الفنية الكثيرة. إن الحاجة مازالت ماسّة، خاصة في العالم العربي، لإيجاد أدوات كفيلة بتوحيد المداخل الاستنادية وضبطها، على الرغم من الأشواط الكبيرة التي قطعتها المكتبات عبرالعالم في عملية الضبط الاستنادي.

يأخذ الاهتمام بالأسماء الجغرافية أبعاداً إستراتيجيةً لارتباطها المباشر ببناء شبكات المعلومات الدولية، وعلاقتها بتاريخ الدول وجغرافيتها؛ لأن «الأسماء الجغرافية مصدر من مصادر التاريخ، ولا سيما التاريخ القديم والحضارات؛ لما لها من أهمية في النواحي الدينية والاجتماعية والسياسية التي كانت سائدة»[١٠]. ويمكن الاستدلال على هذه الأهمية إشارة لا حصراً بما يأتي:

١– الأهمية المتزايدة لمشاريع الذاكرة LAM للاندماج بين المكتبات والأرشيفات والمتاحف، ما يساعد على البحث البيني بفضل دعم التشغيل البيني interoperability بين النظم الآلية واللغات التوثيقية المختلفة. وتُعَدُّ عملية ضبط الأسماء الجغرافية مرحلة أساسية في دعم الجهود الرامية إلى الحفاظ على الأصول التاريخية والثقافية؛ فيشار إلى أن هيئة الأمم المتحدة عقدت مؤتمرها التاسع حول الأسماء الجغرافية في نيويورك سنة (٢٠٠٧م) الذي أصدر قراراً بجعل الأسماء الجغرافية تراثاً ثقافياً غير مادي؛ تأكيداً لما تضمنته اتفاقية اليونسكو من حماية التراث الثقافي المعنوي.[١١]

٢– الاهتمام الدولي بضبط الأسماء الجغرافية، وإنشاء المجلس الاقتصادي والاجتماعي التابع لهيئة الأمم المتحدة، المجموعة العالمية لخبراء الأسماء الجغرافية UNGEGN عام (١٩٦٥م) وتأسيس الشعبة العربية لخبراء الأسماء الجغرافية [١٢] ADEGN عام (١٩٧١م) بهدف:

أ– وضع الأسس والقواعد اللازمة لجمع الأسماء الجغرافية العربية، وضبطها، وتوحيدها، واستخدامها على الصعيد الوطني والإقليمي والعالمي، وحلّ جميع المشاكل اللغوية والصوتية التي تعترض توحيدها.

ب– تبادل الخبرات العلمية والتقنية التي تساعد جميع الدول الأعضاء على إيجاد سبل إصدار معاجمها الجغرافية.

ج- وضع آليات للتعاون المشترك بين المنظمات العربية المهتمة بالعلوم الجغرافية بعامة، وصناعة الخرائط بخاصة، ومثيلاتها من المنظمات الإقليمية والدولية.

د- الاهتمام بالأسماء الجغرافية في الوطن العربي من حيث ضبطها وتوحيدها، وتمكين جميع الدول الأعضاء في الشعبة العربية من استخدامها وكتابتها بطريقة موحدة.

هـ- إبراز الفوائد الكبيرة: الاقتصادية والاجتماعية، والثقافية والتاريخية، والدينية لجمع الأسماء الجغرافية وضبطها، وحفظها وتوحيدها.

٣- الأهمية المتزايدة لنظم المعلومات الجغرافية وتكاملها مع نظم المعلومات الوطنية والإقليمية والدولية، التي تعاني غالبيتها نقائصَ في ضبط الأسماء الجغرافية رغم كل التطورات التكنولوجية التي عرفتها ؛ إذ يقول أحد الباحثين: و«يكمن العجز في نظم المعلومات الجغرافية في المعلومات النّوعية القائمة على الكلمات التي تقوم على الأسماء؛ فينبغي البحث في علم الأسماء، واسترفاد مصادره الأولى ومصادره اللاحقة ليطّرد البناء المعرفي والتقني في نظم المعلومات الجغرافية، وغيرها من العلوم والمعارف المختلفة»[١٣].

٤- الشحنة التاريخية والفكرية التي تحملها المصطلحات الجغرافية، فالأسماء الجغرافية تمثل موضوعاً حساساً يحتاج إلى دراسات متأنية، وجهود متواصلة لتحديد المفاهيم. ونذكر نموذجاً من القواعد التي تعتمدها مكتبة الكونغرس في ضبط استناد الأسماء الجغرافية، ويتعلق بطريقة التعامل مع أسماء[١٤] الأراضي المحتلّة، والأردن وسورية:

23.4E. أماكن أخرى

إسرائيل، الأردن، سوريا

لا تتم إضافة اسم البلد إلى الأماكن التي كانت قبل عام ١٩٦٧ تابعة لسوريا أو الأردن، والتي هي حاليا جزء من الأراضي التابعة لإسرائيل.

استخدم "القدس" للقدس.

23.4E. OTHER PLACES.

Israel, Jordan, Syria

Do not add the name of the country to places that prior to 1967 were in Jordan or Syria and that are currently within the administered territories of Israel.

For Jerusalem, use "Jerusalem."

مشاكل الأسماء الجغرافية في الفهارس الآلية:

يمكن تحديد الفئات التي تدخل ضمن مفهوم الأسماء الجغرافية[١٥] فيما يلي:

١- الأسماء الإدارية، والدول والمدن بشكل مباشر، المعروفة سياسياً، مثل: قطر، والسعودية.

٢- المناطق الجغرافية ومجموعات البلدان، مثل: حوض المتوسط، ودول الخليج العربية، ودول الاتحاد الأوروبي.

٣- أسماء الأماكن غير الإدارية، كأسماء السدود والطرق، والشوارع والقنوات، والمزارع والمحيطات، والجبال والوديان، والأجرام الفضائية والصحارى، والرؤوس المائية والجزر.

ويمكن تصنيف الأسماء الجغرافية في الملفات الاستنادية في قسمين رئيسين:

أ- الأسماء الجغرافية السيادية، وتتضمن الأسماء الجغرافية الخاصة بالبلد.

ب- الأسماء الجغرافية غير السيادية، وهي الأسماء الجغرافية لباقي دول العالم.

إن العدد الكبير من الأسماء الجغرافية التي تتداول في فهارس المكتبات والمتاحف، والوسائل المساعدة على البحث في الأرشيفات- يواجه مشكلات عند البحث والاسترجاع لأسباب كثيرة منها:

- اختلاف مصادر الأسماء الجغرافية، وينتج منه تضارب في الاستخدام والتباين في اللغات التوثيقية المستخدمة وفي الممارسات.
- تعدد وتنوع صيغ رسم الاسم الجغرافي في مختلف اللغات ونطقها[١٦].

الاسم / اللغة	اسم البلد	اسم العاصمة
الإنجليزية	United Arab Emirates (the)	Abu Dhabi
الفرنسية	Émirats arabes unis (les)	Abou Dhabi
الإسبانية	Emiratos Árabes Unidos (los)	Abu Dhabi
الروسية	Объединенные Арабские Эмираты	Абу-Даби
الصينية	阿拉伯联合酋长国	阿布扎比
العربية	الإمارات العربية المتحدة	أبو ظبي

١- تعدد صيغ الاسم الجغرافي للبلد الواحد حسب اللغات المتداولة. مثال: Scotland [١٧] لها ما يقارب ٢١ اسماً بديلاً، أو صيغ رسم مختلفة: Auchterderay، وOchtirderay، وUrchan، و Hurkyndorath وغيرها.

- تباين رموز مختصرات الأسماء الجغرافية للدول والمناطق الجغرافية بين معايير الآيزو ISO ،وقواعد الميتاداتا المطبقة، وغيرها من المعايير:
  - رمز دولة الإمارات العربية المتحدة في مواصفة ISO 3166-1 [١٨] هو: AE [١٩]
  - الرمز المعتمد في قائمة رموز مارك لأسماء الدول[٢٠] هو: ts
  - الرمز المستخدم في قائمة رموز مارك للمناطق الجغرافية [٢١] هو: a-ts

إن الفهارس الآلية مليئة بالكثير من الأخطاء الشائعة نتيجة المشاكل المذكورة سابقاً وهذه نماذج يمكن ملاحظتها:

١- أخطاء في شكل مدخل الاسم الجغرافي

Subject	Titles
Abu Dhabi (United Arab Emirates) -- Social life and customs -- Pictorial works.	1
Abu Musa -- International status.	3
Abu Musa island	2
Abu Nidal.	1

٢- أخطاء استخدامات الحقول الفرعية "التفريعات الجغرافية"

العناوين	الموضوع
1	صندوق الأمم المتحدة للنشاطات السكانية -- تاريخ
1	صندوق الزواج -- الإمارات العربية المتحدة
1	صندوق الزواج (الإمارات العربية المتحدة).
1	الصندوق ، الكويت ، للتنمية الاقتصادية العربية

٣- اختلاف رومنة Romanization الاسم الجغرافي مقارنة برسمه الأصلي في لغة المنشأ؛ مثل «أبوظبي» وAbu Zaby، و دبي و Dubayy

Subject	Titles
Abu Dhabi (United Arab Emirates : Emirate) -- Social life and customs -- Pictorial works.	1
Abu Musa -- International status.	4
Abu Musa island	2
Abu Nidal.	1
Abu Zaby (United Arab Emirates : Emirate) -- Description and travel	1
Abuse of rights.	1

See :	العناوين
1. Towers -- United Arab Emirates -- Dubayy (Emirate)	1

Subject	Titles
Dwellings -- Arab countries -- History -- To 1500.	1
Dwellings -- Security measures	1
Dwellings -- United Arab Emirates -- Dubayy (Emirate)	1
Dye industry -- History.	1

٤- أخطاء في المحارف ينتج منها تكرار نفس المدخل في الملف الاستنادي

Author	Titles
Abu Yusuf Yaqub, 731 or 2-798.	1
Abu Z◆aby (United Arab Emirates : Emirate). Dept. of Archaeology and Tourism.	1
Abu-Ghazaleh Intellectual Property (Firm)	1
Abu-Hakima, Ahmad Mustafa, 1932-	2

٥- استخدام صيغ مختلفة لنفس المدخل في اللغة نفسها!

الموضوع	العناوين
شعر الرثاء العربي	1
الرازي، محمد بن زكريا، الفيلسوف -- تراجم	1
رأس الخيمة (الإمارات العربية المتحدة) -- الآثار	1
رأس الخيمة (الإمارات العربية المتحدة : إمارة) -- الآثار	1
رأس الخيمة (الإمارات العربية المتحدة : إمارة) -- الأحوال الاجتماعية	2
رأس الخيمة (الإمارات العربية المتحدة : إمارة) -- الأحوال الإقتصادية	1

٦- أخطاء الإدخال الإملائية، وينتج منها تكرار المدخل نفسه في الملف الاستنادي

الموضوع	العناوين
الدول النامية -- جغرافيا	1
الدول النيابية	1
دول مجلس التعاون	1
دول مجلس التعاون الخليجي	1
دول مجلس التعاون الخليجي -- اتفاقيات	1

Subject	Titles
Arabian Gulf States -- International status.	1
Arabian Gulf States -- Politics and government	2
Arabian Gulf States -- Politics and government.	7
Arabian Gulf States -- Politics and government. -- 20 th.	1
Arabian Gulf States -- Politics and government -- Bibliography.	1
Arabian Gulf States -- Politics and Government -- Congreses	1
Arabian Gulf States -- Politics and government -- Congresses.	1
Arabian Gulf States -- Politics and government -- Sources.	1

٧- الاحتفاظ بالمعلومات المحلية في التسجيلات البيبليوغرافية والاستنادية المستنسخة ينتج منها تكرار المدخل نفسه في الملف الاستنادي

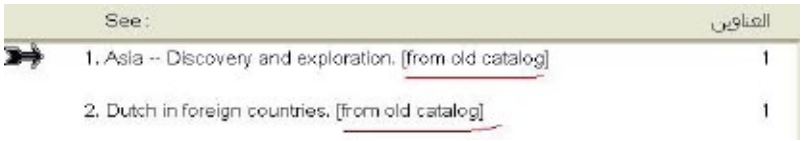

الإمارات العربية المتحدة في أدوات التكشيف العربية(٢٢):

لم نطّلع على قوائم رؤوس الموضوعات العربية كلها ،ولكننا تمكنا من الاطلاع على أكثرها انتشاراً لتحديد مستوى شمولها للأسماء الجغرافية الإماراتية، وأهمها:

١- الإمارات العربية المتحدة: قائمة رؤوس موضوعات وطنية للمكتبات ومراكز المعلومات عربي – إنجليزي / تأليف محمد عوض العايدي، شاهين الحوسني.- الشارقة : تقنيات المكتبات، ٢٠٠٧.-٥١٢ ص.

القائمة الوحيدة المتخصصة في المداخل الموضوعية الخاصة بدولة الإمارات العربية المتحدة. ويذكر مؤلفا القائمة في مقدمة الكتاب سبب قيامهما بهذا العمل الثنائي اللغة: عربي، إنجليزي: «وقد اقتضت الضرورة التفكير في إصدار هذه القائمة الوطنية لتوحيد وتقنين رؤوس الموضوعات المستخدمة في المكتبات ومراكز المعلومات، التي تتناول كافة الموضوعات المتصلة بدولة الإمارات العربية المتحدة». ومما يلاحظ في هذه القائمة:

- عدم اهتمامها بالأسماء الجغرافية الإماراتية اهتماماً كافياً وإنما تناولت عينة منها فقط.
- تقسيمها إلى: عربي، وإنجليزي يجبر مستخدمها على بذل جهد مضاعف، وكان من المستحسن بناء القائمة على شكل تسجيلات استنادية متعددة اللغات بدل تقديمها في الشكل التقليدي للقوائم العربية للموضوعات.
- لم نجد مدخلاً خاصاً بدولة الإمارات العربية المتحدة يشمل كل الإحالات المطلوبة.
- اعتمدت صيغة أبو ظبي –مع فراغ– بدل أبوظبي، ويقابلها في القسم الإنجليزي Abu Dhabi. وهو خلاف الصيغة الإنجليزية المعتمدة في مكتبة الكونغرس التي تستورد منها المكتبات الإماراتية والعربية تسجيلاتها غالباً.
- يلاحظ على القائمة وجود بعض المداخل الجغرافية دون تحديد لمستواها الجغرافي "مدينة"، مثل: [خورفكان – تاريخ]، [دبا الحصن – تاريخ]، [العين – تاريخ] مع العلم أن هذا الأمر يطرح إشكاليات "الدمج" في النظم الآلية للتسجيلات الاستنادية المتشابهة كالمدخل التالي:

  الإمارات العربية المتحدة–المنامة–تاريخ

  انظر المنامة – تاريخ [لا فرق بينها وبين المنامة عاصمة البحرين]

- الملاحظة نفسها تنطبق على الجزر الإماراتية:

طنب الصغرى–تاريخ مع أن صير بونصير(جزيرة)

طنب الكبرى–تاريخ أبوموسى (جزيرة)

- يلاحظ عدم استخدام مدخل [دول الخليج العربية] على الرغم من شيوع تداوله في فهارس المكتبات الجامعية الإماراتية بخاصة.

٢- قائمة رؤوس الموضوعات العربية العربية الكبرى/ شعبان عبدالعزيز خليفة.ـ القاهرة : المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٤.ـ ٠٣ ج.

- تعتمد هذه القائمة صيغة أبو ظبي –مع فراغ– بدل أبوظبي. وتتضمن القائمة المداخل التالية:

أبو ظبي

أبو ظبي – تاريخ

اتحاد إمارات الخليج انظر الإمارات العربية المتحدة

ومدخل آخر:

استقلال البلاد العربية

انظر أيضاً الاستعمار في البلاد العربية ؛ العالم العربي – تاريخ

وأسماء الدول العربية أيضا متبوعاً بالتقسيم تاريخ – الاستقلال

مثل: مصر – تاريخ – الاستقلال

xx الإمارات العربية المتحدة – تاريخ – الاستقلال

البحرين – تاريخ – العصر الحديث – الاستقلال

تونس – تاريخ – العصر الحديث –الاستقلال

الجزائر – تاريخ – العصر الحديث – الاستقلال

...إلخ.

لاحظ أن التفريع العام "تاريخ" أُستخدم مع "الإمارات العربية المتحدة فقط"! واستخدم مع باقي أسماء الدول بإضافة التفريع الزمني "العصر الحديث" والسؤال المطروح: أي فترة يشمل رأس الموضوع المذكور؟ علماً أننا نجد في الصفحات التالية من القائمة مدخلاً آخر:

الإمارات العربية المتحدة – تاريخ–العصر الحديث–الاستقلال ١٩٧١

لقد وجدنا القائمة اعتمدت الاستناد التالي:

الإمارات العربية المتحدة

X اتحاد إمارات الخليج ؛ الاتحاد التساعي ؛ الاتحاد السباعي ؛ دولة الإمارات العربية

ويلاحظ أن الصيغة المستخدمة لإمارة أم القيوين هي أم القوين بدون أي تحديد إن كانت إمارة أو مدينة تابعة لإحدى الإمارات...إلخ.

٣- قائمة رؤوس الموضوعات العربية / إبراهيم أحمد الخازندار.- ط.٣.- الكويت : جامعة الكويت، ١٩٨٣.- ٥٧٨ ص.

يلاحظ أن هذه القائمة امتازت عن غيرها بوضع مجموعة من القواعد الخاصة بالأسماء الجغرافية، وتقيدت بها في بناء مداخل الأسماء الجغرافية، وهي:

- تستخدم أسماء الأقطار والمدن مجردة من أي كلمة دالة على شكل الدولة أو المدينة «إمارة، جمهورية، دولة، مملكة، مدينة...إلخ» مثل: بغداد؛ السعودية؛ سوريا؛ الكويت؛ مصر...إلخ، والإحالة من الأشكال الأخرى غير المستخدمة، وإذا وردت الكلمات لضرورة التخصيص أو لعدم إمكان إغفالها فيمكن الإبقاء عليها نحو:

  الإمارات العربية المتحدة

  دول الخليج العربية

  المدينة المنورة

وإذا تشابه اسم المدينة رسماً وكتابةً مع اسم القطر التابعة له أو اسم قطر آخر وضعت كلمة مدينة بين قوسين للتفريق بينها وبين اسم القطر:

الجزائر	الكويت	عُمان
الجزائر (مدينة)	الكويت (مدينة)	عمّان (مدينة)

وإذا تشابهت أسماء المدن مع اختلاف الأقطار التابعة لها ذكر اسم القطر في حاشية توضيحية بين قوسين مثل:

طرابلس (لبنان)	طرابلس (ليبيا)

الأعمال التي تتناول المعالم الطبيعية كالأنهار والبحار، والجبال والجزر، والصحارى...إلخ يراعى عند صياغة رأس الموضوع استخدام المصطلح المخصص، ووضع المصطلح العام بين قوسين، وإحالة من الشكل الطبيعي للاسم إلى الشكل المستخدم مثل:

فيلكا (جزيرة)	المسيسبي (نهر)	المقطم (جبل)
X جزيرة فيلكا	X نهر المسيسبي	X جبل المقطم

وإذا حدث أي التباس بقي الاسم كما هو بشكله الطبيعي دون تقديم أو تأخير:

البحر الأحمر

الخليج العربي

الصحراء الكبرى

استخدمت هذه القائمة الاستناد التالي «الإمارات العربية المتحدة»:

الإمارات العربية المتحدة

X اتحاد إمارات الخليج ؛ دولة الإمارات

مقارنة الأسماء الجغرافية الإماراتية في قوائم رؤوس الموضوعات العربية والأجنبية

لا يمكن المقارنة بين مستوى شمول ملفات الاستناد والمكانز الأجنبية والعالمية للأسماء الجغرافية الإماراتية، ومستوى شمول القوائم العربية التي تستأنس بنماذج من الأسماء الجغرافية –على سبيل المثال– لشرح طريقة التعامل مع المداخل الجغرافية، أما ملفات الاستناد غير العربية التي فيها تسجيلات استناد للأسماء الجغرافية الإماراتية فهي مقبولة شكلاً ومضموناً. والجدول أدناه لا يحتاج إلى تعليق كبير؛ فإن مجموع الصيغ غير المعتمدة (إحالة انظر) والصيغ المعتمدة المرتبطة (إحالة انظر أيضاً) –مجتمعة في القوائم العربية الثلاث السابقة– للاسم الجغرافي «الإمارات العربية المتحدة» كعينة لا ترتقي إلى مستوى تسجيلة استناد United Arab Emirates المعتمدة في مكتبة الكونغرس أو مكنز Getty، علماً أن هذه الأخيرة يمكن استرجاعها بالعديد من اللغات منها اللغة العربية.

جدول مقارن لشكل استناد «الإمارات العربية المتحدة» في قوائم الاستناد العربية

الصيغ	الإسم الجغرافي	شعبان	الخازندار	د. شاهين
صيغة معتمدة [1](151)	الإمارات العربية المتحدة	X	X	X
صيغة غير معتمدة (451)	اتحاد إمارات الخليج	X	X	
	دولة الإمارات		X	
	الاتحاد السباعي	X		
	الاتحاد التساعي	X		
انظر أيضاً (551)				الأخلاق الإماراتية؛ الأزياء الإماراتية؛ الحضارة الإماراتية؛ الرقص الشعبي الإماراتي؛ الصحف الإماراتية؛ العمارة الإماراتية؛ الفن الإماراتي وأيضاً الإمارات بأسمائها مثل: أبو ظبي

وفيما يلي تسجيلة استناد «الإمارات العربية المتحدة» مسترجعة من مكتبة الكونغرس[٢٣]. ويلاحظ أنها تتضمن إحالة من تسع صيغ غير معتمدة منها الصيغ المرومنة، وصيغة واحدة في اللغة الفرنسية، وتتضمن إحالة واحدة من نوع «انظر أيضاً».

LCCN		: n 79086806
000		01257cz a2200325n 450
001		2823707
005		20031112052126.0
008		800418n| acannaabn |a ana
010	–	|a n 79086806 |z sh 91004997
035	–	|a (OCoLC)oca00319232
040	–	|a DLC |b eng |c DLC |d DLC |d MH |d DLC |d DLC-S |d WaU
043	–	|a a-ts---
151	–	|a United Arab Emirates
451	–	|a Federation of Arab Emirates
451	–	|a UAE
451	–	|a Imārāt al-Arabīyah al-Muttaḥidah
451	–	|a Ittiḥād al-Imārāt al-Arabīyah
451	–	|a Ittiḥād Imārāt al-Khalīj al-Arabī
451	–	|a Fédération des Emirats unis
451	–	|a Union des Emirats arabes
451	–	|a U.A.E.
451	–	|a Emirats arabes unis
551	–	|w a |a Trucial States
670	–	|a Sadik, M. T. |b Bahrain ...
670	–	|a Archéologie aux Emirats arabes unis, 198-: |b t.p. (Emirats arabes unis)
670	–	|a Cambridge encycl. of the Middle East and North Africa, 1988: |b p. 442 (United Arab Emirates, known until 1971 as the Trucial States)
670	–	|a ME&NA, 1981-82: |b p. 832 (United Arab Emirates: Abu Dhabi, Dubai, Sharjah, Ras al-Khaimah, Umm al-Quwain, Ajman, and Fujairah)

781 – 0 |z United Arab Emirates

952 – |a RETRO

953 – |a xx00 |b yn13

وفيما يلي تسجيلة استناد «الإمارات العربية المتحدة» مسترجعة من مكنز جيتي للأسماء الجغرافية[٢٤]:

ID: 1000143
United Arab Emirates (nation)
Note: Federation of 7 internally self-governing emirates on E Arabian Peninsula; region had important Sumerian trading sites by 3000 BCE; conversion to Islam 7th cen.; Portuguese arrived 16th cen.; treaties with Britain 1820-1971; Ra's al-Khaymah joined in 1972; official language is Arabic, though English is widely understood.

Names:
Al Imārāt (preferred,C,V,N,Arabic-P)
Al Imārāt al Arabīyah al Muttaḥidah (C,V,N,Arabic)
Al-Imārāt al-Arabīyah al-Muttaḥidah (C,V,N,Arabic)
United Arab Emirates (C,O,N,English-P)
Émirats arabes unis (C,O,N,French-P)
Emiratos Árabes Unidos (C,O,N,Spanish-P)
Emirados Árabes Unidos (C,O,N,Spanish)
Emiratos Arabes Unidos (C,O,N,Spanish)
Vereinigte Arabische Emirate (C,O,N,German-P)
Verenigde Arabische Emiraten (C,O,N,Dutch)
Trucial Oman (H,O,N)
Trucial Coast (H,O,N)
Trucial States (H,O,N)
Emirian (C,O,A,English)

تقييم البحث عن «الأسماء الجغرافية الإماراتية» في الفهارس الآلية الإماراتية والعربية:

لعدم شمول أدوات التكشيف العربية للمداخل الجغرافية بعامة والمداخل الإماراتية بخاصة افترضنا أن ممارسات استخدام المداخل الجغرافية في الفهارس العربية تعتمد على أدوات التكشيف الأجنبية لتعويض النقص في المداخل والقواعد المتبعة، سواء أكان باعتماد الأصل في اللغة الأصلية أم بالترجمة للمقابل العربي، أو بالاحتفاظ بالشكل المرومن؛ ما يشكل مصدراً للأخطاء والتضاربات الكثيرة في الفهرس الواحد، وبين الفهارس في البحث البيني.

للتحقق من هذه الفرضية نبدأ بتقييم نتائج البحث في عينة من الفهارس الإماراتية والعربية عن بعض الأسماء الجغرافية الإماراتية، في صيغتها العربية و الإنجليزية –والفرنسية إن وجدت– وكذا المرومنة باستخدام «الكشاف العام» الذي يسترجع العبارة المبحوث عنها من مختلف حقول الوصف البيبليوغرافي سواء أكانت حقولاً بيبليوغرافية خالصة أم حقولاً مضبوطةً بالاستناد، ثم نقارن نتائج البحث في الكشاف العام بنتائج البحث في كشافات المؤلفين والموضوعات لتحديد الحقول التي تتضمن أكبر قدر من أخطاء الاسترجاع. والتركيز هنا في خطأين رئيسين عرضا أثناء تقييم جودة قاعدة بيانات المركز الوطني للوثائق والبحوث هما:

١– استخدام الفراغات في الاسم الجغرافي: أبوظبي أو أبو ظبي، وكذا AbuDhabi وAbu Dhabi

٢– استخدام صيغ مختلفة للاسم الجغرافي في اللغة الأجنبية في حقول الاستناد: Abu Zaby/Abū Ẓaby بدل Abu Dhabi وكذا Dubayy بدل Dubai

وجاءت نتائج المقارنة:

١– الحالة الأولى: استخدام الفراغات بين أجزاء الاسم الجغرافي

يُعَدّ عدم توحيد كتابة الأسماء الجغرافية رسماً وشكلاً أحد الإشكالات في الفهارس الآلية لمؤسسات المعلومات العربية، ويوضح الجدول رقم (١) الفروق الموجودة في نتائج الاسترجاع في مجموعة من مكتبات دولة الإمارات العربية المتحدة. وإذا كان الأمر على هذه الشاكلة لكتابة الاسم بالعربية فإن لمقابليْه الإنجليزي والفرنسي المصير نفسه ولكن بدرجة أكبر!

جدول ١: نتائج البحث بالكشاف العام General index في فهارس المكتبات في دولة الإمارات العربية المتحدة ٢٠٠٩/١١/٠٣

اللغة	المؤسسة / عبارة البحث	UAEU[25]	ZU[26]	HCT[27]	LIWA[28]	NL-ADACH[29]	PSUAD[30]
Ara	أبوظبي	458	13	07	168	374	00
	أبو ظبي	1070	241	03	697	1163	00
Eng	Abu Dhabi	494	456	241	794	336	20
	AbuDhabi	01	08	05	11	01	00
Fre	AbouDhabi	00	00	00	00	00	00
	Abou Dhabi	00	00	00	835[31]	01	01

تفيد هذه النتائج أن الباحث في هذه الفهارس يواجه ظاهرة ما اصطلح عليه بـ"الصمت" في البحث الآلي!. إن البحث بإحدى صيغ الاسم الجغرافي "أبوظبي، أو أبو ظبي" يضيّع على الباحث مجموعة لا بأس بها من العناوين المهمة إذا كان البحث باستخدام صيغة "أبوظبي" –بلا فراغ– والشيء المثير للانتباه أن الصورة "مشوشّة" نسبياً في الفهارس الآلية للمكتبات العربية خارج دولة الإمارات العربية المتحدة؛ لأن صيغة «أبوظبي» –بلا فراغ– هي الصيغة المكرسة في التسجيلات البيبليوغرافية! انظر الجدول رقم (٢) وهو ما يضع الباحث العربي في «دوّامة» حقيقية أثناء بحثه في فهارس هذه المكتبات مقارنة بمثيلاتها في الإمارات العربية المتحدة. ولعل أصدق مثال على ذلك هو التباين الموجود بين الفهرس العربي الموحّد الذي يعتمد صيغة «أبو ظبي» ومكتبة الملك فهد الوطنية التي تعتمد الصيغة الأخرى «أبوظبي»!.

جدول ٢: نتائج البحث بالكشاف العام General index في فهارس المكتبات الخليجية والعربية الأخرى ٢٠٠٩/١١/٠٣

اللغة	المؤسسة / عبارة البحث	KFNL[32]	QU[33]	UOB[34]	AUK[35]	SQU[36]	TNL[37]	AUC[38]
Ara	أبوظبي	143	25	11	04	66	17	48
	أبو ظبي	70	01	04	16	06	44	1818
Eng	Abu Dhabi	25	12	19	148	13	04	13
	AbuDhabi	00	00	00	00	00	01	00
Fre	AbouDhabi	00	00	00	00	00	00	00
	Abou Dhabi	00	00	00	00	00	00	00

وبإجراء البحث نفسه في فهارس كبريات المكتبات العالمية (جدول رقم ٣) جاءت النتائج كالتالي:

جدول ٣: نتائج البحث بالكشاف العام General index في فهارس المكتبات العالمية* ٢٠٠٩/١١/٠٣

اللغة	المؤسسة / عبارة البحث	LOC[39]	BL[40]	BNF[41]	Worldcat[42]	NLA[43]	LAC[44]
Ara	أبوظبي	13	01	00	39	00	00
	أبو ظبي	429	97	39	1280	00	00
Eng	Abu Dhabi	406	296	55	4191	41	10
	AbuDhabi	00	15[45]	03	36	01	00
Fre	AbouDhabi	00	00	00	00	00	00
	Abou Dhabi	02	00	28	64	00	02

وللتحقق أكثر من التوجهات النوعية لهذه النتائج كانت مقارنة كل كشاف مضبوط استنادياً Authority controlled على حدة (جدول رقم ٤)، ثم إجراء البحث نفسه باستخدام كشاف الموضوعات وكشاف المؤلفين لمحاولة قراءة التوزيع النوعي لشكل كتابة الاسم الجغرافي حسب الاستخدام:

جدول ٤: نتائج البحث بالكشافات المقيدة استناديا ٢٠٠٩/١١/٠٣

المكتبات / الكشافات / عبارة البحث		المكتبات الإماراتية						المكتبات الخليجية والعربية الأخرى					
		UAEU	ZU	HCT	LIWA	NL-ADACH	PSUAD	KFNL	QU	AUK	SQU	TNL	AUC
الموضوع	أبوظبي	10	00	00	00	72	00	71	09	00	05	04	10
	أبو ظبي	133	61	00	05	407	00	03	00	01	01	06	281
	AbuDhabi	00	00	12	06	00	00	00	00	00	00	00	-
	Abu Dhabi	13	02	38	38	233	02	12	05	01	02	00	-
	AbouDhabi	00	00	00	00	00	00	00	00	00	00	00	-
	Abou Dhabi	00	00	00	00	00	00	00	00	00	00	00	-
المؤلف	أبوظبي	00	00	00	00	133	00	57	00	01	48	09	24
	أبو ظبي	35	15	00	02	1001	00	26	00	00	02	11	1181
	AbuDhabi	00	00	00	00	01[46]	00	00	00	00	00	00	-
	Abu Dhabi	31	09	32	20	139	08	05	00	01	03	01	-
	AbouDhabi	00	00	00	00	00	00	00	00	00	00	00	-
	Abou Dhabi	00	00	00	00	00	00	00	00	00	00	00	-

تؤكد أرقام الجدول:

- أن معظم الأخطاء توجد على مستوى الموضوعات.
- أن مكتبة الملك فهد الوطنية، وجامعة قطر، وجامعة السلطان قابوس تعتمد شكل "أبوظبي" خلافاً لكل المكتبات الأخرى التي تعتمد شكل «أبو ظبي»!.

٢- الحالة الثانية: استخدام صيغ مختلفة للاسم الجغرافي في حقول الاستناد الأجنبية:

معظم المكتبات يستخدم الفهرسة بالنسخ من فهرس مكتبة الكونغرس، وتستورد المداخل الاستنادية المستخدمة في الملفات الاستنادية للمكتبة نفسها، فكان تقييم عملية البحث في الفهارس العربية باستخدام صيغ Abu Zaby/Abū Ẓaby و Dubayy باعتبارها صيغاً معتمدة في مكتبة الكونغرس ولكنها قد تكون غير معتمدة في غيرها!.

تستخدم مكتبة الكونغرس تسجيلتين استناديتين للاسم الجغرافي Abu Zaby هما:

أ- أبو ظبي مدينةً

LCCN n 81147502

043 – |a a-ts---

151 – |a Abū Ẓaby (United Arab Emirates)

451 – |w nnaa |a Abū Zaby, Abū Zaby

451 – |a Abu Dhabi (United Arab Emirates)

451 – |a Abu Zabi (United Arab Emirates)

451 – |a Madīnat Abū Ẓaby (United Arab Emirates)

451 – |a Baladīyat Abū Ẓaby (United Arab Emirates)

451 – |a Abu Dhabi Municipality (United Arab Emirates)

451 – |a Abū Ẓabyo (United Arab Emirates)

451 – |a Abū Ẓabye (United Arab Emirates)

451 – |a Abū Ẓabyī (United Arab Emirates)

451 – |a Dāirat Baladīyat Abū Ẓaby (United Arab Emirates)

670 – |a Sauti Consulting Engineers. City of Abu Dhabi, Corniche, 1968.

670 – |a Baladīyat Abū Ẓaby, 1993: |b p. 52 (Madīnat Abū Ẓaby) p. 163 (Abu Dhabi Municipality)

670 – |a GEOnet, April 27, 2004 |b (Abu Dhabi [conventional]--PPLC, 24°28′N 54°22′E, variants: Abū Ẓaby, Abū Ẓabyo, Abū Ẓabye, Abū Ẓabyī; AE01 [Abū Ẓaby])

670 – |a Its al-Kitāb al-sanawī, 1987-1991: |b t.p. (Dawlat al-Imārāt al-ʻArabīyah, Imārat Abū Ẓaby, Dāʼirat Baladīyat Abū Ẓaby)

781 – 0 |z United Arab Emirates |z Abū Ẓaby

ب – أبو ظبي إمارةً

LCCN n 81147503

043 – |a a-ts---

151 – |a Abū Ẓaby (United Arab Emirates : Emirate)

451 – |w nnaa |a Abū Ẓaby

451 – |a Abu Dhabi (United Arab Emirates : Emirate)

451 – |a Abu Zabi (United Arab Emirates : Emirate)

451 – |a Emirate of Abu Dhabi (United Arab Emirates)

451 – |a Imārat Abū Ẓaby (United Arab Emirates)

670 – |a Gt. Brit. Treaties, etc., 1952- (Elizabeth II) |b Arbitration agreement ... 1954.

670 – |a Fossil vertebrates of Arabia, c1999: |b t.p. (Emirate of Abu Dhabi, United Arab Emirates) added t.p. (Imārat Abū Ẓaby bi-Dawlat al-Imārāt al-ʻArabīyah al-Muttaḥidah)

781 – 0 |z United Arab Emirates |z Abū Ẓaby (Emirate)

أما "دبي" فتستخدم تسجيلة واحدة هي:

LCCN n 79142799

043 – |a a-ts---

151 – |a Dubayy (United Arab Emirates : Emirate)

451 – |a Dubai (United Arab Emirates : Emirate)

451 – |a Dibai (United Arab Emirates : Emirate)

451 – |w nnaa |a Dubai

451 – |a Imārat Dubayy (United Arab Emirates)

451 – |a State of Dubai (United Arab Emirates)

451 – |a Sheikhdom of Dubai (United Arab Emirates)

451 – |a Shaikhdom of Dubai (United Arab Emirates)

451 – |a Debei (United Arab Emirates : Emirate)

451 – |a Debai (United Arab Emirates : Emirate)

667 – |a AACR 1 form.: Dubai

670 – |a GEOnet, April 27, 2004 |b (Dubayy--ADM1, 25°00′N 55°20′E, variants: Dubayy, Imārat, Dubai, State of, Dubai, Sheikhdom of, Dubai, Shaikhdom of, Dibai, Debei, Debai)

781 – 0 |z United Arab Emirates |z Dubayy (Emirate)

تظهر النتائج في الجدول رقم (٥) توزّع هذه النتائج بين كشاف الموضوعات وكشاف المؤلفين.

جدول رقم ٥: نتائج البحث عن أشكال الاسم الجغرافي Abu Dhabi/Abu Zaby
٢٠٠٩/١١/٠٣

	عبارة البحث / الكشافات / المكتبات	المكتبات الإماراتية						المكتبات الخليجية والعربية الأخرى					
		UAEU	ZU	HCT	LIWA	NL-ADACH	PSUAD	KFNL	QU	UOB	AUK	SQU	TNL
الموضوع	AbuDhabi / Abu Dhabi	13	02	41	44	233	02	12	05		01	02	00
	Abu Zaby/ Abū Ẓaby	53	58	117	175	01	00	00	00		01	00	00
المؤلف	AbuDhabi/ Abu Dhabi	31	09	32	20	139	08	05	00		01	03	01
	Abu Zaby/ Abū Ẓaby	03	01	15	09	00	00	00	00		00	00	00

الملاحظ في الجدول رقم (٥) أن أغلب الأخطاء تتمركز في كشافات الموضوعات لفهارس المكتبات الإماراتية. ويتضح جلياً أن الصيغة الاستنادية الغالبة في مستوى الموضوعات هي Abu Zaby وليست Abu Dhabi في المكتبات الإماراتية كلها ماعدا جامعة السوربون– أبوظبي، على الرغم من اعتمادها في تكشيف مجموعاتها على قائمة RAMEAU إلا أنها تعتمد شكل "Abu Dhabi" بدل Abū Ẓabī (Émirats arabes unis أي عكس ما تقيده القائمة.

تسجيلة استناد «أبو ظبي» في الملف الاستنادي الفرنسي

RAMEAU

000 cx c22 45

001FRBNF120395118

00519921201

009http://catalogue.bnf.fr/ark:/12148/cb120395118

039 $oOPL$a003304649

100 $a19921201afrey50 ba0

106 $a200

152 $bRAMEAU$c2

215 $7ba0yba0y$8fre $9 $aAbū Ẓabī (Émirats arabes unis)

3001 $aCapitale de l'émirat du même nom et de la Fédération des émirats arabes unis

415 $7ba0yba0y$8fre $9 $aAbou Dhabi (Émirats arabes unis)

415 $7ba0yba0y$8fre $9 $aAbū Dhabī (Émirats arabes unis)

801 aFRbBnF$c19921201

810 $aGDEL

http://catalogue.bnf.fr/ark:/12148/cb120395118/UNIMARC

جدول رقم ٦: نتائج البحث عن الاسم الجغرافيDubayy ٢٠٠٩/١١/٠٣

المكتبات / الكشافات / عبارة البحث		المكتبات الإماراتية							المكتبات الخليجية والعربية الأخرى					
		UAEU	ZU	HCT	LIWA	NL-ADACH	PSUAD		KFNL	QU	UOB	AUK	SQU	TNL
الموضوع	Dubai	25	15	211	209	107	01		10	00		06	01	01
	Dubayy	68	73	15	118	00	07		00	00		04	00	00
المؤلف	Dubai	27	11	43	53	22	00		05	00		02	03	01
	Dubayy	02	02	05	03	00	01		00	00		00	00	00

تؤكد نتائج الجدول رقم (٦) أن المكتبات الإماراتية تتقيد بشكل المدخل الجغرافي المعتمد في الملف الاستنادي لمكتبة الكونغرس، وإن كان لا يوافق الصيغة الرسمية للاسم كما هو معتمد في دولة الإمارات العربية المتحدة. والمثير للانتباه أنه في الوقت الذي يشير فيه الجدول رقم (٥) إلى اعتماد HCT على المدخل Abu Zaby في المداخل الموضوعية للأسماء الجغرافية، فإنها تشذّ عن القاعدة بالنسبة للمدخل الخاص "دبي" إذ تعتمد Dubai بدل Dubayy. والملاحظ أن هذه الازدواجية في استخدام مداخل مكتبة الكونغرس –انظر جدول رقم ٦– كان لها أثر سلبي في نتائج البحث في شبكة LIWA ،إذ يلاحظ أن هنالك تشتتاً لنتائج البحث بين Dubai بعدد ٢١١ و Dubayy بعدد ١١٨!

وبناء على نتائج الجداول السابقة يمكن استخلاص ما يلي:

١– أن معظم الأخطاء في الحقول الاستنادية مرتبطة بحقول الموضوعات، وهذا له ما يبرره؛ لأنّ المداخل الموضوعية تكون غالباً أكثر عدداً من مداخل المؤلفين وغيرها. ومن المؤكد أن هذا الأمر مردّه بالدرجة الأولى إلى أخطاء الإدخال أو الفهرسة بالنسخ بدون ضبط الجودة.

٢– أن الصيغة العربية "أبو ظبي" أكثر انتشاراً من صيغة "أبوظبي"♦؛ فيجب توحيد شكل كتابة الاسم الجغرافي العربي في الحقول البيبليوغرافية –غير الاستنادية– لتفادي الازدواجية في البحث والنتائج معاً عند استخدام الكشافات العامة، وكشافات العنوان، وبيانات النشر. والشيء نفسه ينطبق على الصيغة اللاتينية "Abu Dhabi" و"Abou Dhabi" فلا تعدو مداخل "أبوظبي" و"AbuDhabi" أن تكون ناتجة من أخطاء في الإدخال من المفهرسين! فيجب اعتماد إجراءات لضبط الأسماء الجغرافية المكتوبة خطأً وتصحيحها ضمن سياسة ضبط الجودة.

٣- أن التعامل مع السابقة "أبو" يحتاج إلى ضبط وتحكم في النظم الآلية؛ لأنها من أصل الكلمة وليست زائدة عليها! وهذا الإشكال ينطبق أساساً على الاسم الجغرافي «أبوظبي» إذ لاحظنا في فهارس بعض المكتبات التي تستخدم نظام Millennium وخاصة عند البحث بكشاف المؤلفين تعامل "أبو" في الاسم الجغرافي "أبو ظبي" زائدة على الاسم! وهو ما يستوجب -حسب النظام الآلي المستخدم- إضافة الاسم الجغرافي "أبو ظبي" إلى قائمة الاستثناءات فيما يتعلق بزيادة "أبو" لتفادي تجاهلها من محرك البحث أثناء عملية البحث واسترجاع البيانات. إن قائمة رؤوس موضوعات الإمارات العربية المتحدة تشير بوضوح إلى حساب كلمة "أبو" رسماً و حكماً في أي موضع من الاسم في الترتيب الهجائي، عكس كلمة "ابن" أو "بنت" التي لا تحسب؛ أي تبقى رسماً، وتحذف حكماً.

إن نسبة أخطاء الاسترجاع عالية نسبياً في البحث عن الاسم الجغرافي "دبي" في فهارس المكتبات العربية؛ باستخدام الكشاف العام بشكل أساسي؛ فكانت محركات البحث تسترجع تسجيلات لا تتضمن كلمة "دبي" في التسجيلة كاملة؛ ما يوحي بوجود خلل ما في عملية التكشيف. والجدول أدناه يشير إلى أهم أربع مكتبات لاحظنا أن نتائج البحث في فهارسها الإلكترونية عن كلمة "دبي" تشوبها أخطاء في الاسترجاع.

جدول رقم ٧: نتائج البحث عن الاسم الجغرافي "دبي" ٢٠٠٩/١١/٠٣

KFNL	QU	UOB	BNT
469	*10	84*	265

٤- كرّس اعتماد المكتبات الإماراتية على الملف الاستنادي لمكتبة الكونغرس شيوع المداخل المرومنة/ المنقحرة وهو ما يستدعي ضبطها، والربط بينها وبين المداخل الأخرى المعتمدة. وفيما يلي أهم الحالات الشائعة[٤٧]:

رمز المنطقة الجغرافية GAC code	الصيغة العربية	الصيغة المرومنة	الصيغة الإنجليزية
a–ts–––	الإمارات العربية المتحدة	al-Imārāt al-ʻArabīyah al-Muttaḥidah	United Arab Emirates
	أبو ظبي	Abū Ẓaby	Abu Dhabi
	دبي	Dubayy	Dubai
	العين	al-ʻAyn	Al-Ain (UAE)
	الفجيرة	al-Fujayrah	Fujairah
	رأس الخيمة	Ra's al-Khaymah	Ras al-Khaimah (UAE)
	الشارقة	al-Shāriqah	Sharja

خريطة طريق الملف الاستنادي الإماراتي للأسماء الجغرافية السيادية:

إن وجود ملف استنادي إماراتي شامل لكل أنواع المداخل –ومنها المداخل الجغرافية– هو الحلّ الأمثل للمشاكل التي تعانيها الفهارس الإماراتية بخاصة والعربية بعامة. واضطلاع من يهمه الأمر بهذا العبء واجب؛ لما يعود به من فوائد جمّة. وتتجلّى أهمية هذا العمل في كونه لبنةً في بناء الملف الاستنادي العربي الذي يشرف عليه الفهرس العربي الموحّد، الذي يسعى إلى "اقتراح تقنين عربي للأسماء الجغرافية في الوطن

العربي"[٤٨]. وإن تطوير الملف الاستنادي الجغرافي الإماراتي ضمانة نجاح لهذا المشروع العربي الطموح؛ فقد ورد في الأهداف التفصيلة[٤٩] للفهرس العربي الموحّد حول الأسماء الجغرافية:

١- استكمال بيانات الضبط في تسجيلات ملف الأسماء الجغرافية.

٢- مراجعة وضبط المداخل الموجودة فيه، والأشكال المغايرة لها وفق المصادر المعتمدة.

٣- إضافة الأسماء الإنجليزية للأماكن الجغرافية العربية.

٤- ربط تسجيلات ملف الأسماء الجغرافية بملفات استناد عالمية كملف الكونغرس، وملف Rameau للمكتبة الوطنية الفرنسية.

ورد في التوصيات الدولية Garr[٥٠]، GSAR[٥١]، MLAR[٥٢]...إلخ أن كل بلد مسؤول عن ضبط المداخل السيادية. والأسماء الجغرافية تشكل ملفاً سيادياً بامتياز، وتزداد أهمية الملف الاستنادي الجغرافي إذا أدركنا أن دائرة المستفيدين منه تشمل مؤسسات الذاكرة كلها بدون استثناء، خاصةً أنها كلها بحاجة ماسّة إلى أدوات ضبط الاستناد. إن وظيفة التسجيلة الاستنادية -- حسبما تشير إليه مواصفة ISAAR(CPF)[٥٣] -- هي نفسها في كل من الأرشيف والمكتبات[٥٤]. وتوصي معايير CCO[٥٥] بضرورة الضبط الاستنادي لكل أنواع المداخل باستخدام أدوات الاستناد المعروفة، ولاسيما مكنز الأسماء الجغرافية جيتي Getty والملف الاستنادي لمكتبة الكونغرس.

ومن مواصفات الملف الاستنادي أن يكون متعدد اللغات، ومتعدد الألفبائيات/المحارف، ومتعدد الاستخدام (مكتبات، أرشيفات، متاحف، ...إلخ) ومتاحاً إلكترونياً بالميتاداتا الأكثر استخداماً.

وفيما يلي المحاور الرئيسة لخطة تنفيذ الملف الاستنادي للأسماء الجغرافية الإماراتية «الأسماء الجغرافية السيادية»:

- تشكيل **فريق عمل** من كبريات مؤسسات المعلومات الإماراتية في مرحلة أولى. ويتعاون فريق العمل مع مكتبيين مراسلين من مؤسسات المعلومات الأخرى؛ لإرسال اقتراحات وطلبات اعتماد الأسماء الجغرافية. ويعهد إلى فريق العمل وضع سياسة وإجراءات العمل مع خطة التنفيذ.
- ضبط **مصادر المعلومات** التي يتم اعتمادها في الضبط الاستنادي للأسماء الجغرافية الإماراتية، وتشكل المصادر أدناه أهم موارد تلقيم الفهرس الاستنادي الإماراتي للأسماء الجغرافية الإماراتية:

  ١- الملفات الاستنادية العالمية، والمكانز الجغرافية، ونذكر منها على سبيل المثال: Lcsh[٥٦]،Rameau[٥٧]،tgn[٥٨]...إلخ.

  ٢- نظم المعلومات الجغرافية والخدمات المعجمية الجغرافية الإلكترونية digital gazetteer services في المنطقة والعالم، مثل: GEOnet Names Server (NIMA) وUSGS[٥٩]، Canadian Geographical Names Data Base،Alexandria Digital Library، Gazetteer Project[٦٠]...إلخ.

  ٣- التسجيلات الاستنادية للمكتبات الإماراتية بشأن الأسماء الجغرافية الإماراتية، ويتطلب ذلك

اضطلاع كل مكتبة –لا حصراً– بوضع وتنفيذ سياسة لضبط الجودة يتم مراقبة تنفيذها بشكل دوري ومتواصل. وتتم الاستفادة في هذا الأمر من التسجيلات الاستنادية للفهرس العربي الموحد الخاص بالأسماء الجغرافية الإماراتية بعد اعتماده من مصادر الاستناد[٦١] في الحقول المضبوطة استنادياً في مارك٢١[٦٢]. وبحسب الإحصاءات المتضمنة موقع الفهرس[٦٣] فإن عدد التسجيلات الاستنادية للموضوعات الجغرافية بلغ ١٠٨٨٥ تسجيلة[٦٤] شاملة الأسماء الجغرافية الإماراتية.

٤– مواد الخرائط القديمة والحديثة، وكتب المراجع المتخصصة، وكتب التاريخ الإداري لدولة الإمارات العربية المتحدة.

- التحقق من اعتماد الأسماء الجغرافية من هيئة وطنية رسمية قد تكون الشعبة الوطنية للأسماء الجغرافية في دولة الإمارات العربية المتحدة إن وجدت، وللعلم فإن مكتبة الكونغرس[٦٥] تعتمد على ما تقوم به مؤسسة BGN[٦٦] في ضبط الأسماء الجغرافية في مختلف فهارسها.
- وضع آلية التحديث بالتعاون مع الفهرس العربي الموحّد في إطار مشروع الملفات الاستنادية للفهرس، ذي البعد العربي والدولي، وبالتعاون مع المؤسسات الإماراتية. إن منهجية بناء الملفات الاستنادية في الفهرس العربي الموحّد وما يتعلق بالأسماء الجغرافية بخاصة تعتمد على «عملية إثراء تسجيلات الأسماء الجغرافية لكل قطر عربي عن طريق إحدى كبريات المكتبات العضو في الفهرس العربي الموحّد في هذا القطر.»[٦٧]

خاتمة:

إن ضبط جودة الاستناد الذي يُعَدّ جزءًا من عملية ضبط جودة قواعد البيانات البيبليوغرافية يتطلب دائماً تدخل العامل البشري، على الرغم من المستوى المتقدم الذي شهدته وتشهده تقنيات النظم ومحركات البحث الآلية. ويؤكّد واقع الحال أن عدم تبني وتوثيق سياسات وممارسات واضحة للضبط الاستنادي يرهن الجهد المستنفد في المكتبات العربية في فهرسة مجموعاتها. إن وجود أفضل النظم الآلية في المكتبات العربية –في دول الخليج العربية بخاصة– لم يعد ضماناً كافياً لإرضاء المستفيد الذي يواجه مشاكل كثيرة في استرجاع المعلومات.

إنّ واجب الاختصاصيين أن يضعوا للمستفيد العربي ما يبعده عن إشكالات البحث في مختلف الأسماء وأشكالها والأسماء الجغرافية السيادية، ومن حقّه ألّا يرهق بما هو مطلوب من ذوي الاختصاص القيام به أساساً! فهلاّ كانت المبادرة من كل متخصّص –من موقع مسؤوليته– في رفع التحدي الذي طرحته هذه الورقة.

الهوامش

١. ورقة مقدمة في أعمال ندوة «الفهرسة العربية الآلية في القرن الحادي والعشرين – الدورة الثانية، فهارس المكتبات العربية المباشرة بين الممارسة والمعايير، والحاجة إلى تنظيم المعرفة وتسهيل الوصول إليها»، ٢٨ فبراير–٢ مارس ٢٠١٠، أبوظبي– الإمارات العربية المتّحدة.

٢. تشترك المكتبة في خدمة Connexion من OCLC لأغراض الفهرسة بالنسخ.

3. http://www.liwa.ac.ae/

4. http://library.uaeu.ac.ae/*ara

5. http://www.aruc.org

6. http://www.darelkotob.org.eg/

7. http://library.kuniv.edu.kw/

8. http://opac.bnrm.ma:8000/cgi-bin/gw_48_1_2/chameleon/?lng=ar

٩. يقصد بها المكتبات والأرشيفات والمتاحف. ومقابله الإنجليزي هو Memory institutions ويشار إليه اختصاراً بـ LAM أي Libraries-Archives-Museums.

١٠. الزقرطي، إبراهيم موسى، أسس الأسماء الجغرافية، (عمان، ١٩٩٧)، ص.٧.

11. Convention for the safeguarding of the intangible cultural heritage, Unesco 17/10/2003, viewed 4 Nov. 2009 <http://unesdoc.unesco.org/images/0013/001325/132540e.pdf>

12. http://www.adegn.org/

١٣. القرني، ظافر بن علي، مكمن العجز في نظم المعلومات الجغرافية

viewed 1 Nov. 2009 <http://faculty.ksu.edu.sa/Algarni-Dafer/Papers/مكمن%20العجز.pdf>

14. LIBRARY OF CONGRESS RULE INTERPRETATIONS: Chapter 23-Geographic Names, Oct. 2009, viewed 30 Oct. 2009 <http://www.loc.gov/catdir/pcc/naco/trainers/lcri23.pdf

١٥. جلامنة، عدنان و دروغ، نبيل. الضبط الاستنادي للفهرس العربي الموحد، اللقاء الأول لأعضاء الفهرس العربي الموحد، الرياض ٢٣–٢٤ شوال ١٤٢٧هـ الموافق ١٤–١٥ نوفمبر ٢٠٠٦.

viewed 27 Oct. 2009 <http://ipublish.aruc.org/Media/261_authoriticontrole.pdf>

١٦. استأنسنا بهذا المثال من مكنز UNTERM للأمم المتحدة. viewed 27 Oct. 2009 <http://unterm.un.org/dgaacs/unterm.nsf/WebView/A59828D33A475DAA85256DC7004409FF?OpenDocument>

17. http://nkos.slis.kent.edu/2002workshop/Geo-Crosswalk.htm

18. English country names and code elements <http://www.iso.org/iso/english_country_names_and_code_elements> viewed 20 Oct. 2009>

١٩. تستخدم هيئة الأمم المتحدة إضافة إلى الرمز من تمثيلتين أعلاه رمزاً آخر من ثلاث تمثيلات هو : ARE

20. MARC Code List for Countries http://www.loc.gov/marc/countries/cou_home.html

21. MARC Code List for Geographic Areas http://www.loc.gov/marc/geoareas/gacshome.html

٢٢. لم نتمكن من الاطلاع على أدوات أخرى، ولاسيما الملف الاستنادي للفهرس العربي الموحد لعدم تجهيزه ووضعه في الخدمة، وكذا الملف الاستنادي RVM وغيره لضرورة الاشتراك فيهما.

23. http://authorities.loc.gov

24. Getty thesaurus http://www.getty.edu/research/conducting_research/vocabularies/tgn/

25. http://library.uaeu.ac.ae/*ara جامعة الإمارات العربية المتحدة

26. http://library.zu.ac.ae/search~S٣ جامعة زايد

27. http://library.hct.ac.ae/search/Y كليات التقنية العليا

28. http://liwa.ac.ae/ شبكة مكتبات التعليم العالي إ. ع.م.

29. http://horizon.cultural.org.ae/#focus دار الكتب الوطنية. هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث

30. Sorbonne Abu-Dhabi http://library.psuad.ac.ae/#focus جامعة السوربون–أبو ظبي

٣١. يلاحظ أن النظام يسترجع أي كلمة تتضمن "Abou" ؟!

32. http://www.kfnl.gov.sa:88/hipmain/ مكتبة الملك فهد الوطنية

33. http://mylibrary.qu.edu.qa/ جامعة قطر

34. http://uoblib.uob.edu.bh/ipac20/ipac.jsp?profile=sakhir&lang=eng#focus جامعة البحرين

35. http://aukwire.auk.edu.kw/ipac20/ipac.jsp?profile=central#focus الجامعة الأمريكية في الكويت

36. http://libweb.squ.edu.om/ جامعة السلطان قابوس

37. http://www.bnt.nat.tn/#focus المكتبة الوطنية التونسية

38. http://www.aruc.org (الفهرس العربي الموحد (البحث متاح فقط للمشتركين

* تم اختيار الفهارس أدناه باعتبارها أهم مصدر للفهرسة المستنسخة في العالم العربي

39. Library of Congress online catalog http://catalog.loc.gov

40. British Library Integrated catalog http://catalogue.bl.uk

41. National Library of France http://catalogue.bnf.fr

42. http://www.worldcat.org/

43. National Library of Australia http://catalogue.nla.gov.au/

44. Library and Archives Canada (LAC) http://www.collectionscanada.gc.ca/lac-bac/search/lib

٤٥. أغلب النتائج المسترجعة في صيغة Abu-Dhabi، ما يعني أن النظام الآلي يتجاهل (–) أثناء البحث.

٤٦. التسجيلة المسترجعة تتضمن الاسم الجغرافي "abuDhabi" ضمن حقل النشر؛ ما يعني أن خطأ ما في تعريف كشاف البحث بالمؤلف.

♦ ينطبق هذا الأمر على محررات النصوص مثل MSWord التي يعتمد مدققها اللغوي الآلي صيغة "أبو ظبي" بدل "أبوظبي".

* يفترض أن تكون ٠٩ لأن التسجيلة العاشرة تتضمن كلمة (دبي) في حقل مارك ٧٠٠ للمدخل الإضافي بالمؤلف! رقم التسجيلة في الحقل ٠٠١ هو Z000005683

* إن الكثير من التسجيلات المسترجعة لا تتضمن كلمة «دبي» من التسجيلة كاملة! وهو ما يوحي بوجود خطأ ما في عملية التكشيف الآلي. وإن الأمر يتكرر مع التسجيلات التي تتضمن اسم مؤلف (ديب) وكأن النظام يساوي بين (دبي) و (ديب)!!

47. http://library.princeton.edu/departments/tsd/acm/descr/romgeo.html

٤٨. المسند، صالح، التقنينات الببليوجرافية في الفهرس العربي الموحد، اللقاء الأول لأعضاء الفهرس العربي الموحد، الرياض ٢٣–٢٤ شوال ١٤٢٧هـ ،الموافق ١٤–١٥ نوفمبر ٢٠٠٦.

viewed 28 Oct. 2009 <http://ipublish.aruc.org/Media/378_Tech Bio.pdf>

٤٩. المسند، صالح، و مسروة، محمود، خطة مشروع تطوير الملفات الاستنادية في الفهرس العربي بمشاركة المكتبات الأعضاء: ورشة عمل، اللقاء الثاني لأعضاء الفهرس العربي الموحد، الرياض ٢١–٢٢ شوال ١٤٢٩هـ، الموافق ٢١–٢٢ أكتوبر ٢٠٠٨.

viewed 28 Oct. 2009 http://ipublish.aruc.org/Media/ 380_AUC plan.pdf

50. Guidelines for Authority Records and References

51. Guidelines for Subject Authority and Reference Entries

52. Minimal Level Authority Records

53. ISAAR (CPF) International Standard Archival Authority Record For Corporate Bodies, Persons and Families, viewed 26 Oct. 2009 < <http://www.icacds.org.uk/eng/ISAAR(CPF)2ed.pdf>

54. "Archival authority records are similar to library authority records in as much as both forms of authority record need to support the creation of standardized access points in descriptions." (ISAAR(CPF) 2nd ed. 2004 §1.8)

55. Cataloguing Cultural Objects : a guide to describing cultural Works and their Images, ,

viewed 26 October 2009 <http://www.vraweb.org/ccoweb/cco/tenkey.html>

56. Library of Congress subject headings
57. Répertoire d'autorité matières encyclopédique unifié (Paris: Bibliothèque nationale)
58. Getty thesaurus of geographic names (Los Angeles, CA: Getty Research Institute)
59. http://geonames.usgs.gov/gnishome.html
60. http://alexandria.ucsb.edu/research/index.htm
61. http://www.loc.gov/marc/relators/relasour.html
62. aucsh Qâ'imat ru'ûs mawdû'ât al-fahras al-'Arabîyah al-mowahad = Arabic Union Catalog Subject Headings

٦٣. مسروة، محمود، الملف الاستنادي للفهرس العربي الموحد : الممارسات ومنهجية البناء والتطوير، اللقاء الثاني لأعضاء الفهرس العربي الموحد، الرياض ٢١–٢٢ شوال ١٤٢٩ هـ، الموافق ٢١–٢٢ أكتوبر ٢٠٠٨.

viewed 28 October 2009 <http://ipublish.aruc.org/Media/379_Al-Malaf Al-estnadi.pdf>

64. http://ipublish.aruc.org/Detail.asp?InSectionID=45&InNewsItemID=146
65. http://www.loc.gov/catdir/pcc/naco/geogfaq.html
66. The Library or Congress does not change a country's name unless the new name is recognized by the United States Board on Geographic Names (BGN) (cf. LCRI 23.2). For most foreign place names the LCRI states that these may be established using the item being cataloged with consideration of the form found in the GEOnet Names Server (GNS) or an appropriate gazetteer if access to the web is not an option.

٦٧. المفلح، سعد بن عبد العزيز، مهام وأدوار المكتبات في الضبط الببليوجرافي والاستنادي، اللقاء الأول لأعضاء الفهرس العربي الموحد، الرياض ٢٣–٢٤ شوال ١٤٢٧هـ، الموافق ١٤–١٥ نوفمبر ٢٠٠٦.

Viewed 28 Oct. 2009 <Http://ipublish.aruc.org/Media/264_BIB%20roles.pdf>

عرض كتاب

تأليف: موزة عويص علي الدرعي

عرض: علي درويش عمران

عاشت منطقة الخليج العربي في فترة ما قبل النفط ظروفاً حياتية صعبة تعاوَن على سكانها الجهل، والمرض، والفقر وهي عوامل شجَّعَت الحملات التنصيرية كي تحثّ خطاها نحو المنطقة أملاً في أن تؤتي تلك الحملات أكلها في تلك الظروف الصعبة. ودخلت تلك الحملات المنطقة في نهاية القرن التاسع عشر بدءاً بالبحرين، والكويت، ومسقط، فشرعت تبني المستشفيات، مثلما كان ذلك جلياً في البحرين، والكويت، والشارقة، والمدارس، والمكتبات التي مازالت تحمل الاسم القديم الذي أسست به. وكان من أشهر من تزعم تلك الحملات القس صموئيل زويمر، وبعض رفاقه، ومنهم الطبيب القس بول ولبرفورس هاريسون الذي زار إمارات الساحل المتصالح – الإمارات العربية المتحدة – موضوع الكتاب الذي نستعرض جولاته وخطواته بالمنطقة مع مؤلفته التي تتبعت مسيرته بالمنطقة، وقدمت المعلومة والصورة والتحليل في جميع فصول الكتاب لتلك الفترة التاريخية للمنطقة.

يقدم هذا الكتاب دراسة تاريخية توثيقة وَصْفية لرحلة الطبيب التنصيري الأمريكي بول هاريسون في أنحاء إمارات الساحل، ثم يقدم قراءة تحليلية فيما كتبه ذلك الرجل عن رحلته وانطباعاته في المنطقة.

والكتاب الذي بين أيدينا في ١٩٦ صفحة من القطع المتوسط، ويتكون من مقدمة وسبعة فصول، وخاتمة وملاحق، وقائمة المصادر والمراجع.

يقدم الفصل الأول من الكتاب مدخلاً عاماً عن التنصير في منطقة الخليج العربي، وتاريخ الإرسالية الأمريكية العربية التي عمل تحت مظلتها الطبيب المذكور، ونشأتها ونهايتها، وإمارات الساحل المتصالح، وزيارات أطباء الإرسالية المنصِّرين لمنطقة الإمارات، ثم التعريف ببول هاريسون في سطور.

أما الفصل الثاني فيبدأ ببول هاريسون على أرض إمارات الساحل المتصالح، وأبوظبي بداية الانطلاق نحو الساحل، وبداية الرحلة طريقها إلى أبوظبي التي كان يحكمها آنذاك الشيخ حمدان بن زايد الأول الذي دعا أطباء الارسالية إلى أبوظبي لتقديم خدماتهم الطبية لسكان الإمارة التي كانوا في أمسّ الحاجة إليها. ويتطرق الفصل إلى لحظة وصول هاريسون إلى أبوظبي وانطباعاته التي دوَّنها عنها وعن حاكمها آنذاك.

يذكر الفصل الثالث زيارات هاريسون لدبي والاستقبال والترحيب اللذين وجدهما هناك، ثم لقاءه الشيخ سعيد بن مكتوم حاكم دبي، ورصده لمكانة دبي والوضع الصحي بها، وشخصية حاكمها في ذلك الوقت، ثم يعرج الكتاب على رحلة هاريسون إلى باقي إمارات الساحل المتصالح: الشارقة، وأم القيوين، ورأس الخيمة، ويذكر مشاهداته في الإمارات، وصفات حكامها الشخصية، ومكانتهم لدى رجال القبائل التي يحكمونها.

والفصل الرابع بعنوان «الساحل كما وصفه هاريسون» تطرق إلى تسمية الساحل من الناحية الجغرافية، والتاريخية، والاقتصادية، والاوضاع الصحية فيها.

وجاء الفصل الخامس ليرصد كتابات هاريسون في وقفات: الأولى في موضوع الرقيق وأوضاعهم في الإمارات ومعاناتهم، ومن كان يعمل في المزارع، أو يعمل في السواحل، وفي الثانية ذكر هاريسون أساليب الإدارة البريطانية بواسطة ممثلها (وكيل المقيمية البريطانية) أو الوكيل الوطني أو المحلي في إمارات الساحل المتصالح.

أما الفصل السادس من الكتاب بعنوان: «الإرسالية الأمريكية العربية والسلطات البريطانية: هاريسون نموذجاً» فيحلل العلاقة التي كانت بين هاريسون والسلطات البريطانية في إمارات الساحل المتصالح، وتساؤل حول طبيعة عمله، أهو مبعوث سياسي، أو طبيب، أو أنه مكلف بالأعمال التنصيرية في المنطقة لكنه متخفٍ بعمله الإنساني؟ وما الذي كان ينتظره من السلطات البريطانية لقاء قيامه لإعداده تلك الأخبار والتقارير وتوجيهها إليهم، وأثر ذلك في الجانب المحلي في الإمارات؟.

وتُختتم فصول الكتاب بالفصل السابع الذي يقدم تقويماً لكتابات هاريسون على ضوء زيارته لمنطقة إمارات الساحل المتصالح التي استغرقت حوالي شهرين بين فبراير وإبريل عام ١٩١٨؛ فقد قدمت مؤلفة الكتاب دراسة تحليلية نقدية لكتاباته وما سجَّل من معلومات، ووجهات نظر وانطباعات عن منطقة الإمارات في تلك الزيارة، التي تُعَدُّ تدويناً لحقبة تاريخية من تاريخ الإمارات ومنطقة الخليج العربي، وتصوراً للحياة الاجتماعية السائدة في مجتمع منطقة الخليج العربي عامة ومجتمع الإمارات خاصة، وإشارته إلى أثر بيئة منطقة

إمارات الساحل المتصالح الجغرافية والطبيعية في النشاط الاقتصادي لسكانها، كما رصد بول هاريسون الأوضاع الصحية في المنطقة، وهي من الأسباب الرئيسة التي كانت سبباً في زيارة هاريسون والإرسالية الأمريكية العربية إلى المنطقة، ومن ناحية أخرى فإن تقارير هاريسون كشفت السياسة البريطانية في إمارات الساحل المتصالح، والتعامل الذي كان قائماً بين السلطات البريطانية وشيوخ الإمارات، ويمكن أن تُعد تقاريره سجلاً واضحاً مختصراً عن الأوضاع السياسية في المنطقة آنذاك، والعلاقة بين أهالي المنطقة وحكامهم مثلما لمسه عندما كان يجالس الجميع. ونلاحظ أن الكاتبة رصدت اقتراح هاريسون على السلطات البريطانية في الأسلوب الذي به تستطيع التأثير في شيوخ الإمارات وفرض سيطرتها على المنطقة كيفما أرادت.

وقد أثار هاريسون قضية بالغة الحساسية لمجتمع محافظ كمجتمع إمارات الساحل المتصالح في ذلك الوقت، وهي قضية تحرير المرأة من سيطرة الرجل، إذ ساد شعور بالقلق من أن يؤدي التغلغل الانجليزي بالمنطقة إلى تحرر النساء من هيمنة الرجال. ويتضح من تقارير هاريسون حرصه على رصد كل شاردة وواردة فيما يتعلق بمنطقة الإمارات؛ فعلى سبيل المثال: حرصه على تقدير المسافات الفاصلة بين المناطق، مع مواقعها الجغرافية، وإعطاء نبذة وصفية عنها، وذِكْره المدة الزمنية التي مكثها في كل إمارة زارها، ودقته في سرده للتفاصيل حتى إنه أظهر إعجابه بالطريقة التي يُستقبل بها والكرم الذي وجده لدى أهل الإمارات حكاماً ومحكومين، وامتدح سلوك الناس وأخلاقهم الحميدة في هذه المنطقة.

كانت خاتمة الكتاب قصيرة وتحليلية مركزة في ثلاث صفحات، أما ملاحق الكتاب فشملت بعض الصور والوثائق في أربع صفحات، والتزمت الكاتبة وضع هوامش للمصادر والمراجع، وهوامش للصور في نهاية كل فصل من فصول الكتاب، أما المصادر والمراجع التي اعتمدت الكاتبة عليها في كتابها فجعلت لها قائمة شاملة، وصنفتها إلى مصادر ومراجع عربية، ومصادر ومراجع مترجمة، ووثائق منشورة باللغة العربية، وأبحاث غير منشورة، وأبحاث مقدمة في ندوات ومؤتمرات، وموسوعات ومعاجم، ودوريات عربية، ومصادر ومراجع أجنبية، وصحف، ومواقع إلكترونية، وفي نهاية الكتاب وضعت قائمة بمصادر الصور.

بين أيدينا كتاب جديد في موضوعه، ومحاولة جادة من مؤرخة باحثة من بنات الدولة بحثت في أغوار ذلك الطبيب التنصيري وحللت رحلاته وكتاباته في منطقة الإمارات العربية المتحدة، وبحثت في الموضوع بأسره من شتى جوانبه، فنجحت في تقديم عمل تاريخي مهم يختص بتاريخ الدولة. وقد أتى الكتاب بأسلوب مشوق مدعّوماً بالوثائق، والخرائط، والمصادر والمراجع، والصور.

وكان للكاتبة منهجية تاريخية واضحة في الكتاب، والتزمت الأمانة العلمية في كل ما كتبت حتى إنها أفردت قائمة بمصادر الصور التي استخدمتها في الكتاب؛ إذ نادراً ما يلتزم الكتاب هذا الجانب الذي أصبح ضروريا لاسيّما أنه يحفظ الملكية الفكرية لصاحب الصورة الأصلي.

إن مكتبة الإمارات في حاجة ماسة إلى مثل هذه الأعمال التاريخية المهمة، وإتاحتها للباحثين والدارسين، ورجال العلم المختصين بتاريخ الإمارات ومنطقة الخليج العربي، وبذلك يُعَدّ الكتاب إضافة مفيدة إلى المصنفات الفكرية عن هذه المنطقة الحيوية.

ويلاحظ أن مؤلفة الكتاب قد أغفلت ذكر كتابَيْ بول هاريسون: «العرب في ديارهم»، و«طبيب في الجزيرة العربية» في قائمة المصادر والمراجع الأجنبية، أو في هوامش المصادر والمراجع في نهايات فصول الكتاب،

والمرة الوحيدة التي أَتَتْ المؤلّفَةُ على ذِكْر المؤلَّفَين هي في الفصل الأول من الكتاب أثناء الحديث عن حياته في الجزء الخاص بأعماله ومؤلفاته، وذكرت الترجمة العربية لكتابه «طبيب في الجزيرة العربية» بعنوان «رحلة طبيب في الجزيرة العربية» الصادر عن وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان الشقيقة، وهي ترجمة مختصرة جداً عن النص الأصلي باللغة الإنجليزية، ولعلنا نفترض بحس نية أن عدم ذكر مؤلَّفَي بول هاريسون سقط سهواً، لكننا نأمل استدراك ذلك في الطبعات القادمة من الكتاب، وهذا لا يقلل من قيمة العمل التاريخي الجاد والجهد الذي قامت به الباحثة، ففتحت الباب للباحثين والباحثات كي يسيروا على نهج البحث والتمحيص في تاريخ دولتهم بترجمة أعمال الأجانب الذي كتبوا عن الإمارات، ونشر تلك الأعمال وتحليلها، ونقدها، وتقويمها كي تعمّ الفائدة المرجوة.